ВЕЛИКОЛЕПНЫЙ ПОДАРОК

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

892.78
T12dun
c.1

الدنيا والاخرة

~~22.1.26~~
19190

تأليف

رمزى نادرس

محرر بجريدة مصر

ويوم بالطهارة مع الفقر والجوع
لخير من الف عام بين الرذيلة والذهب

الطهارة تكلف قليلا وتساوي كثيراً
لانها من روح الله والرذيلة تكلف
كثيراً وتهلك النفس والنفيس
لانها من صنع الشيطان

طبع بمطبعة رعمسيس بالفجالة بمصر سنة ١٩١١

892.
T12 d

فاتحة الكتاب

اخواني الاعزاء

يخرج المرء الى ساحة الحياة وعالم الوجود مترنما بما تخيله . فتصوراً ما يفتكره . ففكرا في هذا السراج المنير الذي يضيء حياته ثم ينطفيء . فتسائلا عن امر هذه الحياة التي تجري كالسيل ثم تنقطع : فستفهما عما وراء الموت : هل هو نهاية أو وقفة أو باب يمر به من برزخ الى برزخ: وما الغرض من كل هذا : وايهما احسن البقاء ام الفناء : فتارة يجيب نفسه بان هنالك سرا مطويا يدل على حكمة الخالق في خلقه : وتارة يجيبها بان لا شيء : ان هي الا ارحام تدفع وارض تبلع ولا يهلكنا الا الدهر : وطورا تأخذه الحيرة في تأملاته وخطراته فيمثل الناس بالزجاج اذا انكسر لا يعاد له سبك : وتارة يتزع به التصور الى اعتبار الحياة كالوجود كلاهما يسير منذ الازل والى الابد لغاية ولغير غاية : وحينا

يرمي بفكره الى هجعة الموت فيتوجع لدنو الاجل ولوعة الفراق ويألف الحياة مع ما بها من نعم ونقم وملاذ والآم على خلود دائم معها وفرحظه من الصفاء والهناء ؛ واخرى يثوب الى رشده فيرى الحياة كالطبيعه هذه تعيش بين الغناء والبكاء وتلك بين الصحو والاضطراب واجمل منهما ما وراء الاولى وهو الخلود وما وراء الثانية وهي السماء

هذه هي اهم التصورات التي تجول في فكر كل انسان وعلى صفحة كل ضمير منذ الوف من السنين ولو أن كل حي لا يظن انه ملاق الموت بل قد يظن أن غيره من الناس هالكون أي انه يوافق على المذهب القائل «بان كل من عليها فان» ولكنه لا يستطيع أن يطبق القاعدة على نفسه واذا استطاع لا يمكنه أن يتصور لعمره نهاية الا على بعد عظيم جداً لا يعرف له حد ولا امد . وهكذا يقطع الحياة بالامل ويزيده الامل غفلة عما وراء الحياة حتى اذا غشيه الموت وطارت روحه الى خالقه عرف تلك الغاية التي تنتهي اليها العوالم الارضية . والحد الذي ستقف عنده . والمحيط

اللامتناهي الذي ستطوف فيه متعذبة أو متألمة بحسب صنيعها في الدنيا خيراً كان أو شراً .

واذا كان جهل الانسان بمعرفة اسرار الحياة والعدم أو تعلقه الفطري باذيال الدنيا أو شعوره بالرجوع الى الحالة التي كان عليها قبل الميلاد دفعه الى التصور بعدم الخلود بعد الموت فاعتقاده أن لكل حي سفراً يخط عليه بقلم الحوادث حسناته وسيئاته ليحملها الى الذريه من الادلة الجلية على ان له حياتين حياة العمل وحياة الجزاء والاجر أو بعبارة اصرح حياة فانيه واخرى خالدة تطابق صنيعه وتماثل عمله . وبديهي اذا كانت الحياة الاولى الفانية تبتدئ من الجماد وترتقي الى الانسان فمن المؤكد أن الحياة الثانية الخالدة تبتدئ من الانسان وتصعد الى الله .

بل ولو سلمنا جدلا بعدم الخلود والبعث . وسلمنا باننا سننام في احضان الغيب واكفان الابد بمعزل عن كل جزاء وعقاب أفنسلم بان نطوي سجل الحياة على صفحات ملوثة مظلمة ونرد الى الطبيعة سفرها الناصع البياض كتلة

سوداء ؟ كلا ؟ ولماذا ؟ لان كل انسان كائن من كان ميال بطبيعته الفطرية وكيانه الحيوي ان يترك بعده مصباحاً من نور يستنير باشعته القادمون وراءه في طريق الحياة ليذكروه بالخير ويجملوه بالثناء والحمد .

على أن ذلك الميل وحده لا يكفي لجعل سفر الحياة محمود الاثر مالم تسبقه عوامل قوية تضن به وتشح عن أن تهوى بصفحاته الى سبل الشر ومظان الاثام . وليست تلك العوامل بخارقة العادة أو بعيدة المنال فقد رأينا كثيرين قد تحصلوا عليها وفازوا بها ثم خرجوا من مهيع الحياة مسرورين الى مضجع الممات جذلين .

كلنا يسأل ما هي تلك العوامل واين توجد ؟ هل هي في العلم ام في التربية ام في الدين ؟ لا اقول الله اعلم بل اقول قولا حقاً انها موجودة في الدين بدليل أن العلم يثقف العقل والتربية تهذب النفس والدين يطهر القلب . وما دام القلب هو المحور الذي تدور عليه كل اعمال الانسان ومنه يستمد العقل والنفس كل القوى التي تعينهما على البقاء وتسيرهما في

السبيل السوي كان تطهيره محتما بل واول الاشياء التي تستدعي عناية الانسان والاعجز العقل والنفس عن مقاومة شرهما الفطري وميولهما الفاسدة .

يقول الشارع العظيم ان من القلب تخرج الافكار الشريرة ويخرج القتل والزنا والغش والتجديف والخداع والخبث والمكر والاحتيال والجبن والتعصب وكل الخطايا والاثام التي يرتكبها الانسان وتجر عليه الويلات . فيجد من جميع العالم تأمينا على قوله واعتقاداً بصحة رأيه القويم ومن منا لا يعرف أن القلب هو الجاني الاكبر على النفس وعلى العقل . من منا لا يعتقد انه المجرم الذي ينبغي أن يساق الى السجن ويعلق في المشنقة ويضرب بالسوط ويحكم عليه بالاعدام ان لم يطهر من اثامه وشروره ويولد ولاده روحيه جديدة يستمدها من فضائل الدين وحكمه وفروضه وشرائعه ونواميسه ووصاياه لتنزع به الى الشفقة والحنان والرفق والعدل والتسامح والاخلاص والشجاعة والتقوى وكل الصفات الحية والخلال المحمودة التي تجعل الحياة سعيدة وتزيد

الانسان قوة وصبرا على استقبال معاكس الحظ وحملات البلاء

ولا خلاف في أن التربية الدينية هي اهم محصولات الحياة البشرية ليس لانها تجعل الانسان امينا في اعماله ومعاملاته متوخيا طرق الحكمة في احواله وخطواته متبصرا في اموره بل لانها تقويه على ضبط اهواء نفسه وتسخيرها لقواه الخيرية وما دام ضبط النفس هو الحد الفاصل بين الحياة المادية والحياة الادبية فهذا الحد انما هو اساس السعادة التي نسعى جميعا للحصول عليها والتنعم ببركتها المتناهية . وانظروا كيف تخرج التربية الدينية من رعاع الطرق قوما يشعرون أن كل شهوة سيئة وكل تسليم بالرذيلة وكل خطيئة يرتكبونها اختيارا تحمل في ذاتها جرثومة العقاب وانظروا كيف تصيرهم رجالا احرارا يصبرون على الشدائد ويبذلون النفس في سبيل المصلحة العامة بلا جزاء . بل انظروا انظروا في مشتملات هذا الكتاب الصغير الذي اقدمه اليكم تجدوا أن تربية القلب ضرورية لتقويم النفس وامداد العقل بالقوة والحكمة والفطنة والذكاء كضرورتها الاستقلال

المرء واعتماده على نفسه في معترك الحياة

ذلك حق وعدل لان تسعة أعشار الشرور التي تحط من قدر الهيئة وتئن منها الهيئة وتفسد نظام الحياة وتشكو من ويلاتها كل حياة على الارض ان هي الا من انعدام التربية الدينية بيننا فالاحداث يتعلمون ويتهذبون ولكن بذور الخطية المغروسة في فطرتهم تنمو بنموهم حتى اذا ما بلغوا أشدهم ملأتهم طيشاً وتمردا ودفعتهم الى التوغل في ارتكاب المنكرات واجتراح الكبائر دون مبالاة بصحتهم ولا باموالهم ولا بحياتهم التي يعبدونها ويقدسونها حتى يغادروا مرسح اللهو والتصابي على خاتمة مأساة تطير من هولها الالباب . وسلوا أطباء النفوس والاجساد عن العلل الكامنة في جوف البشر يجيبوكم بما يستنزف الدموع ويفتت الاكباد بل سلوا الهاجعين في مراقد الفناء يخبروكم بما لاقوه في حياتهم من ألم وغم ومرض وهم وأوجاع وعذاب ومصائب شداد اهلكتهم قبل أن يهلكوا ومزقتهم قبل أن يأكلهم الدود ويمحيهم التراب

نقول ذلك لا لنثبت فقط أن المفاسد والشرور والشهوات تودي براحة الانسان وسعادته وحياته بل لنؤيد ما ذهبنا اليه من اعتبار التربية الدينيه هي الحد المتمم لكمال الاخلاق والعواطف وبدونها لا يشعر الانسان بعظم الحياة وجلالة النفس . وكيف يشعر وهو شرير ينزع بنفسه التي انطوت على الشر الى أن يكون حية سامة تقتل كل من صادفت على حين أن المتهذب بحكمة الدين ينزع بروحه الى أن يكون ترياقا لسمام هذه الحية أي انه يعتمد في رضى الله على ارضاء الناس فلا يؤذيهم ولا يغتابهم ولا يسيء اليهم ولا يغمهم ولا يحسدهم ولا يعاملهم الا بمثل ما يجب ان يعاملوه به . فما أسمى هذه التربية الروحية التي تفيد صاحبها في معترك الحياة بما لا تستطيع جميع المدارس ولا أقوى الذرائع التهذيبية ان تفيده جزءاً منها

وليست التربية الدينية التي نقصدها هي الديانة العلميه بل هي الديانة العمليه أي الديانة الكاملة التي تربينا على أسس الحق والواجب والتي يجب أن نجعلها أول دروس

الحياة التي تتلقاها في البيت والمدرسة والمجتمع حتى نشب رجالا نافعين لا نفسنا ولامتنا ولوطننا عالمين بان لنا ربا لا يدعنا بلا رزق فنثق به. واجلا يبادرنا فنتوقعه. وفرضا نؤديه فنشتغل به. وعينا ترانا حيثما كنا فنستحي أن نفعل ما حرمه الله وانكره. وبهذا نصير اهلا للسعادة في الدنيا ومستحقين للرضوان الدائم في الآخرة

الكلمة الاولى

ها قد بلغا سن الرشد . وخرجا من المدرسة صديقين اليفهما الوفاء . وسميرهما محض الود وخالص الولاء، حتى مثلا باخلاصهما الحد الذي ينتهي اليه الاخاء .والغاية التي تقف على ساحل او قيانوسها العظيم كلمة الشارع الحكيم « هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضا كما احببتكم »

فرقتهما يد العمل والجهاد في معترك الحياة فلم تزدهما الا ارتباطاً وميلا كأنهما قد استعاضا عن النواظر بالسرائر وعن اللقاء بالرسائل وهي تتبادل بينهما محيية ما في عواطفهما من ايات الود وعرى الاخلاص وكاشفة لكل منهما ما خفي من أحوالهما وما استتر ليكونا على علم بما يجري

في حياتهما من مسيل الحوادث ومكتتم الاخبار

ظلا زمناً يتراسلان فيرسلان من قلمهما اسمى العواطف وأرق الوجدان. وينسجان من شعورهما الاخوي أجمل ما حاكته يد الصداقة بين قلب انسان وانسان. وهكذا اذا كان في الوجود خير فليكن في وجود الصديق الصادق واذا كان فيه شر فليكن في وجود الصديق المنافق لان خير ما يتطلبه الانسان من الانسان أن يجد في صدره اخلاصاً يمرح فيه ويلعب وشر مايلقاه أن يجد فيه غدراً يهلكه وخيانة تذهب به في الشقاء كل مذهب

نعم كثيرا مايغشى الصداقة المتينة فتورا اختياريا أوقهريا فتتحول من اخلاص وولاء الى جفاء وعداء ولكنها لاتدفع بالصديق ان كان حكيما الى الغدر بصديقه وخيانته بل على الغالب تنزع به الى مشاركته في حزنه وعسره وفي تعبه وشقائه ان لم يكن بالايثار الصحيح فبالتظاهر الفعلي الذي هو جزء من الايثار لان العواطف هي دائما العواطف بعينها والاخلاص هو دائما الاخلاص بعينه اي ان الاحوال تتغير والصداقة ثابته

على ما هي .وهذا ما حل ببطلي كتابنا حيث انقلب أحدهما مغلوبا على أمره يوآخي الاشرار ويعاون اخوان السوء فاضلوه وغوى الضلال ودفعوه الى انفاق ماله في سبل الهوى فهوى لا يفرق بين الحرام والحلال كأنه وطر العود يهتز لكل ضارب ويطفر لكل عازف وهو لا يميز بين الانين والرنين ولا بين التلحين والحنين وربما كان بين الوطر والعود مسافة ما بين القلب والنفس

تبدلت الاحوال فانصرف اللاهي بالملاهي عن الله يقطع الحياة بين الغواني والاغاني ويشتغل بالسكر والفجر في الساعة التي تتلو فيها النفس اية العطف والبر حتى اذهب سهاد الليالي بنور سناه وثناه عن مراسلة صديقه عشير الصبا ورفيق الشباب ولولا هذا الفتور ما حلت القطيعه محل الصلة ولا امست الصلة في احتياج لسابقة الود وعاطفة الولاء

مرت الايام والصديق لاينفك عن البحث في أمر صديقه الهائم في فناء الملاذ والشهوات حتى وقف على سره

فكتب اليه يقول

« أيها الصديق الحميم السلام عليك اما بعد لقد غبت عني بين لجة الخمر وضفة الفجر فغطست فيها والتأجت اليها فاسرفت وبذرت وأهديت وفرقت ورهنت واستدنت حتى صيرتني حزيناً عليك أشخص الى مصيرك للتعاسة والشقاء بعين باكية وصدر يئن فاحتفظ بما تبقى لك وليجتمع في قلبك الافتقار الى الناس والاستغناء عنهم وفي نفسك الميل الى الملاذ والابتعاد عنها » فاجابه

« صديقي . بتأثر وانفعال لا استطيع التغلب عليهما اكتب اليك لا لاعاتبك على ما وجهته الي من الوخز وقوارص الكلام بل لاقول لك اننا سرنا في عهد الحداثة بين قطبين متخالفين ثم تلاقينا في عصر الشباب على قاعدة المحبه صديقين حميمين فاحتفظ بالصداقة ولا أقل من ولاء أطلبه منك وأخاء أسألك الوفاء به » فرد عليه يقول

« أخي ماحاولت بنصحي الا خيرك ولا بعذلي الا تحسين سيرك ولا يحزني الا خوفي من أن ينفذ مالك ويحترق فيشتد

عليك الظلام الذي يقل فيه النور الى أقل ما يمكن ويكثر فيه الظل الى اكثر ما يمكن فيحل بك ما حل بغيرك من الفقر والشقاء فانتبه لنفسك واعص هواها » فاجابه « صديقي لا تزد فحسبي منك شفقة وحنانا ونصحاً وارشاداً » فرد عليه يقول « صديقي ان من احبك نهاك ومن ابغضك أغراك ولطمة الناصح خير من قبلة الغاش » فلم يجبه ثم عاتبه على جفائه فلم يكاتبه فارسل اليه الرسائل التاليه التي تراها مصورة امامك تمثل معنى الاخاء الصحيح المبني على صدق الوفاء والخالي من شوائب الغرض والرياء

بين صديقين

١

الكتاب الاول

عزيزي

أحييك والخجل يملأ جوانحي . واستفسر منك عن صحتك والحياء يعروني . وأكتب اليك والوجل ينشرني ويطويني حتى لتجدن القلم الصامت يئن ويضطرب فوق صفحة تهتز وتفترق كأنها تحاول الطيران من بين يدي لموقفي الحرج وكلما ثبتها ازدادت اصرارا على الفرار والاختفاء كأنها تقول لي بأي جبين أستطيع لقاءه بعد أن ضن عليك بالرد وبخل بالاجابة. فقلت لها ثبتي عزمك واعلمي أن لاخي الجفاء ولي الولاء. وناهيك بمن كان للخليل خليلاً وللصادق صادقاً والسلام

٢

عزيزي
سلام من المحتضر
أخوكم عليل الجفاء

٣

عزيزي
أخذ الجفاء حياتي
أخوكم متوف

٤

عزيزي
شيع الجفاء جنازتي
أخوكم مرحوم

---

(٥) الرد على هذه الكتب

عزيزي
وردتني كتبك وبطاقاتك كأنها بكاء عين قرحها

الاسى أو تنهد قلب مزقه الهم والحزن ولا أدري لماذا تقرع تلك الانغام وتختلف الى الظنون والاوهام وتستدرج من القطيعة عتاباً ومن الفتور جواباً وأنت أعلم بأخيك وحاله وما تستدعيه كثرة أعماله فهون عليك الامر واقتصر من الكلام ولك مني ألف تحية وسلام

رسالة من القبر

(٦) رد الرد

من عالم الاموات الى عالم الاحياء

أخي

ان خيال التذكار جاء طارقاً مقري في عالم الاموات وأنا رهين الجزاء بما صنعت ان خيراً فخير وان شراً فشر. وخليق بي وقد تذكرتني أن اقص عليك بلا تأوه ما رأيته وما انتابني لتقف على حقيقة أمري كما وقفت على حقيقة أمرك وإياك والملل من تلاوة كلمة هي فاتحة الكلمات بينك وبين من كنت تعده من صفوة اخوانك ونخبة أصدقائك وخلانك

الساعة الآن السادسة مساء وقد آذنت الشمس بالغروب كما آذن هيكلي الفاني بالرحيل الى العالم الباقي . وما انقضى عمر الليل وضحى النهار حتى وارى المشيعون جثتي في حفرة قفرة موحشة لا انيس فيها ولا صديق . ولا صوت بها ولا صدي ولا نافذة فيها ولا نور غير عظام بالية . وعيون أطفأها الموت . وهوام تتطاير صامته فوق الجثث الهامدة . وحشرات تغشاها من كل جانب . فهلع صدري الذي احتمل سهام الطاعنين بصبر وجلد وقلت ويل للانسان اذا كان مصيره التراب ونهايته الدود لماذا لا يخشى الله ويتجافى عن الجفاء والعداء ويحسن الى الناس ما استطاع سبيلا . لماذا لا يترك الخداع والرياء ويتبع كتاب الله الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر . انه يرى الملوك والملكات الاغنياء والفقراء موسدين الثرى بجانبه . انه يرى البدور اللواتي كن كالشرق في بهائه وفي حسنه قد أبلاهن الموت فصيرهن أبشع منظراً من عجوز شمطاء . انه يرى الابطال الذين دوخوا الممالك وأبادوا العروش ترابا ورماداً . انه يرى الموت ينسل بين الاحياء فلا

يرحم كبيراً لشيخوخته . ولا صغيراً لشبابه ولا أما لولدها ولا ولداً لابيه ولكنه لا يتعظ ولن يتعظ . انظر يا أخي الى الانسان ألا تراه ضالا في غلوائه متناسياً الدين بالدنيا والآخرة بالاولى . ألا تراه يتعالى من حيث يجب التواضع . ويسيء من حيث يجب الاحسان . ويخون من حيث يجب الوفاء . ويكذب من حيث يجب الصدق . ويظلم من حيث يجب العدل . ألا تراه ينزل نفسه منزلة الآلهة وغيره منزلة الاوغاد . ويصف نفسه بكل فضيلة وغيره بكل رذيلة . ولكنه لا يدري ما يفعل ولا يعي ما يقول ولو درى ووعى ما فعل الا الخير . ولا أتى غير الاحسان

تعساً لذلك الانسان تراه يخطىء فيلهو ويأثم فيلعب وهو لا يشعر بأنه يفقد بذلك السعادة الحقيقية في الدار الباقية كما كدت أفقدها اليوم لذنوب اقترفتها في الدنيا وهي ظني في نفسي الكمال يوم كنت حياً حتى بلغ مني الظن وبعض الظن اثم كما تعلم ان الرحمن جل جلاله لم يخلق في عباده أرفع مني نفساً . ولا أعلى شعوراً . ولا أطهر قلباً . ولا

أسمى أدبا ولا أكمل خلقاً . فتعاليت على عباده وأسأت اليهم في شعورهم وأخلاقهم واني أستغفره تعالى مما ظننت ومما أسأت وهو غفور رحيم

حولت نظري يا أخي في جوف ذلك الرمس المخيف فرأيت بنات الارض تلدغ وتلذع الجثث بلا مراعاة بين العظيم والحقير ولا بين الطاهر والشرير فقلت ما أشبهك يا بنات الارض بالمغتابين من بني الانسان في قلة الوفاء وعدم التميز بين الصالح والطالح ولكن أنت لك عذر هو جهلك ما تعملين وأما هؤلاء فأي عذر لهم وهم لا يجهلون عاقبة ما يعملون . انما اعلمي ان الله جعل لك الارض مقراً ومثوى ليتقي الانسان شرك وهجماتك وأما هؤلاء وقد خالفوا كتبه وآياته وجدفوا على شريعته الطاهرة وانزلوا أنفسهم منزلتك للاضرار بالناس والسعاية بينهم تارة بالنميمة وأخرى بالاغتياب فقد جعل لهم السعير في الآخرة عقابا ومثوى وناهيك يا ابنة الارض بنار الجحيم وما فيها من عذاب وهول شديد

ولكن دعك من هذا المنظر المخيف الذي يحار فيه

العقل ومنه يتعظ اللبيب الحكيم وانظر معي الى ذلك الجمع المحتشد من الناس الذي حرك الجماد ببكائه يوم موتي وكلل تابوتي باكاليل الزهور وباقات الورود كيف يضحك الآن لاهياً لاعباً ولم تمر على موتي الساعات . أتظن أنهم كانوا يبكون علي ويتأوهون لفراقي ؟ كلا كلا ! انهم كانوا يبكون الموت وقد تذكروه ويبكون الساعة التي يصيرون فيها الى ما صرت اليه . اسمع اسمع ألم ترهم حينما اقتربت من الضريح قد انسلوا كالحيات من بين عتبة القبور وتواروا عن الظلمة الابدية التي سأعيش فيها ! أتظن كان انسلالهم أو كانت مواراتهم من شدة حزنهم علي أو من تأثرهم لفراقي ! كلا ! انما لتأثرهم من الموت وتأثرهم من خياله حتى لتجدن أكثرهم يخفق اضطرابا ووجلا اذا القته يد التسيار الى المقابر يوما ما لانه يتخيل الموت جاثماً أمامه بل ورابضاً فوق كل صخروفي زاوية كل قبر يرشق هذا بنباله ويقتنص ذاك في شباكه ثم اسمع بالله أفلم تجد بين القبور امرأة تحفر خديها بالتراب على قبري وترطب صخوره النائتة بدموعها السخينة المنبعثة من

جوانحها وعواطفها . فما الذي كان يدفعها الى هـذا الحنين ؟ أهو الحب أم هو الحنان ؟ لا هذا ولا ذاك : انما هو الشعور واذا رأيت المرأة أرق شعورا من الرجل فلانها أكثر منه وفاء

على أني رأيت قبل ذلك يا أخي جماعة المشيعين لجنازتي تتعاقب على وجوههم آي التأثرات المصطنعة فما أشبههم بالحانوتي الذي يظهر الكآبة والحزن تعليلا لمواقفه ثم رأيت بينهم انسانا يضرب الارض برجليه ويعفر بالتراب خديه . وينتحب بحرقة تتعالى من صدره فتفرست فيه لاني عرفت نبرات صوته واذا به ذلك الداهية الذي سبب تعاستي وهلاكي في عالم الاحياء ولكنه يبكي الآن على عيون الناس رياء على فقدي . وما كان الرياء في العالم كما تعلم شيئا خارقا للطبيعة فقد جرى الناس على سننه منذ أول الخليقة وظهرت بوادره بين قابيل وهابيل وما الشواذ الا افراد تعالت نفوسهم عن الدنيا وما فيها وعاشوا مع الخلق برزة اتقياء كسنبلة القمح اذا وجدتها بين الحشائش فاعلم انها حبة قمح اختلطت بحب الحشيش عند بذره

ثم رأيت بعد الصلاة رجلاً أشد نفاقا ورياء من ذلك المتباكي . هو ذلك المرائي الذي كثيراً ما صوب الي الطعن وبغضني من كل قلبه وجعل حسناتي سيئات وعلمي جهلاً . وكمالي نقيصة . رأيته قد اخترق الجموع الصامتة ووقف حاسر الرأس دامع العين يعدد فضائلي وحسناتي . ومن الغريب أنني لم أسمع صوتاً فيه نغمات العجز والارتباك مثل صوته فكأنه كان يتكلم مضطراً ولو استطعت النطق لقلت له بأي وجه تعترف اليوم بحسناتي وقد أنكرتها في حياتي ولكني الحق أقول لك اني لو عدت الى الدنيا ثانياً لما خشيت الموت ولا الفقر ولا الجوع ولا السجن وانما أخاف الانسان الناطق وأخشاه وأهرب منه بعيداً بعيداً الى حيث لا تجمعني به جامعة لأنه الشيطان الأرضي الذي يخالف الله وأوامره ونواهيه ودينه وشريعته .

والآن أما وقد انتهى المشيعون من مواراتي في سجني المظلم فقد رأيت ما هو اغرب وأعجب رأيتهم قد عادوا الى منزلي كما جاؤوا منه في مركبات أقلتهم على نفقتي . وبالله

من قسوتهم وظلمهم انهم لا يرحمون حتى أمواتهم ولا يشفقون على عائلات أمواتهم التي ربما كانت فقيرة لا تستطيع حمل اعباء تلك النفقات الباهظة . ألا تمد كل فئة منهم أيديها الى جيوبها وتدفع أجرة ركوبها فتكون هذه هي الرحمة للميت ولكن لا . انهم لا يفعلون فقد تذكرت الآن انه لو لا تلك المركبات التي يتنزهون عليها ذهاباً وايباباً لما شيع الواحد منهم جنازة أخيه أو صديقه الى مقرها الاخير فهم كما رأيت يضحكون من بعضهم بعضاً ويتعاملون بالنفاق والخداع حتى في الحزن وساعة الموت

عادوا الى منزلي ثم ترددوا عليه ليالي المأتم التي لم أعرف سبباً لاحيائها ولا مرجعاً لوجودها . عادة قديمة تأصلت في نفوس الناس فأصبحت عقيدة من لم يتبعها ضرب بالكفر والالحاد والبخل وتسلطت عليه السنة النمامين من كل صوب كأنه أتى فرية ولو علم المحزونون ان ضرر تلك الليالي (ليالي المأتم) ونفقاتها عائد عليهم ومنفعتها وخيرها على غيرهم ممن لا يستحقون لاقتصروا على يوم

واحد ولحفظوا أموالهم لاعالة أولادهم وتربيتهم ان كانوا فقراء أو منحوها لعمل خيري أو لمشروع وطني يعود على أمتهم بالخير وما وراء الخير الا ترقية النفوس وتهذيبها التنسخ على صفات الخداع والرياء والنفاق بيد العفاء . ولكن مالي ولكل هذا ياأخي فارجع معي الى أولئك المترددين على منزلي ترهم لا يحملون أنفسهم مؤونة الحضور لتعزية أهلي بل لتمضية الهزيع الأول من الليل بين السمر والسهر حتى اذا ما انتهت الليالي الثلاث احتاطوا بعائلتي المسكينة ليزيدوها حزناً على حزن فتجد هذا يعظم مصيبتهم بموتي . وذاك يتغالى في وصف حسناتي وأولئك يكبرون في اعمالي حتى يجعلوني أقنوم الطهارة والفضيلة ومثال الايثار في تضحية النفس ومساعدة الفقراء واليتامى وخدمة الامة والوطن بل تجد هؤلاء وهم الاكثر شروراً في الدنيا يذكرون بأن الموت مصير كل حي والحياة فانية وخير الناس من أحسن عملا ليرتع في النعيم الباقي كما أحسنت أنا ورتعت في النعيم أنا . هكذا يقولون اني أحسنت في الدنيا وليس علي غبار ولم

أرتكب ذنباً ولا اثماً واني طاهر مطهر بل نبي يعبد وبالله منهم كيف يذكرون كل ذلك الآن الاني صرت بعيدا عنهم أم لانني بت مفارقا لهم الفراق الأبدى . ألم يكن جدير بهم أن يعاملوني في الحياة بما تستدعيه الصداقة ويستوجبه الأخاء ثم يتركوا أمر تقديري بعد موتى لغيرهم ولكنهم لا يعرفون تلك المعاملة ولو عرفوها ما كان ثمت خبث ورياء

فدعهم يا أخي في غيهم دعهم واذهب بعيداً عنهم كما ذهبت لانهم لا يتعظون حتى من الموت ولو اتعظوا أو كانوا يتعظون لما رأيتهم يخرجون من مأتمي الى الحانة الى محال الخلاعة والرقاعة الى بيوت الميسر يضحكون من الدنيا ويهزأون بالآخرة كأن ليس لهم الا الساعة التي هم فيها بل وسمعت من الاسف ان أحدهم يذكرني على سبيل الممازحة مع اخوانه فهبوا في وجهه كالوحوش المفترسة لانه لغص عيشهم بذكر الموت والاموات في ساعات لهوهم واوقات سرورهم ثم افترقوا متخاصمين وعادوا متصالحين وهكذا يقضون

الحياة بين لهو وسرور وخصام وصلح حتى تجيء الساعة فلا تدم ينفع حينئذ ولا شجون

مرت علي تلك الرؤية الهائلة التي شاهدت فيها المرسح الوهمي الذي يمثل عليه الانسان أدواره الهزلية الاخيرة وتخللها تلك البدعة الغريبة التي تمثل بين مخادع نساء الراحل ويعلوها الندب والعويل واللطم والتصويت بواسطة من يسمين بالندابات والمعددات اللواتي يحتللن منزل كل متوف لتهييج النساء واثارة عواطفهن الى درجة الجزع والالتياع التي يتلوها عادة الغشيان ثم الموت ولولا تلك البدعة الممقوتة لما أشفقت عليهن ولما تحركت الى سردها لك مع ما سردته من البدع والعادات الباقية بيننا الى الساعة والتي أخرتنا زمنا طويلا عن الوصول الى مرتقى الانسانية التي خلقها الله على مثاله حقاً

على أني أسألك بحرمة الآخاء الذي ما زلت أشعر به نحوك بالرغم عن فتور تولاك نحوي أن توقف حياتك على مقاومة هذه العادة وأمثالها وتنبيه العالم المصري الى

مضارها عله ينسخها كما نسخ غيرها خصوصاً وان البكاء لا يفيد الميت والندب لا يعيده الى الحياة الدنيا التي يتقاتل البشر لاطالتها ولو وصلت بهم الى سن الشيخوخة والهرم ولاتظن ان عواطفي قاسية وحواسي جامدة لاتشعر بمرارة الفراق الابدي ولكن يجب ان تقوى قوة النفس على العواطف والحواس القلبية في مثل هذا الموقف الذي هو مصير كل حي .

صحيح ان تلك القوة النفسية تضمحل أمام تيار الاحساس الرقيق ولكنها تقاومه وتقوى عليه وتلاشيه اذا كانت متدينة تدينا صحيحاً ومؤمنة بالله وباليوم الآخر ايمانا قويا فسر في سبيلك القويم لخير امتك واعلم ان حنين المحزون لدرجة ايثار النفس وتضحيتها على قبر رحيله انما هو شعور وقتي زائل ان دفعه اليوم الى التوهم بخروج رحيله من عالم الحياة النوراني الى عالم الاموات المظلم فقد لا يندفع الى هذا الينبوع الذي تنفجر منه الآلام عند ما يشعر ويعتقد عن يقين أن في الآخرة جنة أرقى من نعيم الحياة الذي يراه الانسان

الحقيقي حلماً مملوءاً بالالم والشقاء وقد يكون التفاني في الحزن غالباً ليس من نوع الايثار بل رغبة من المحزون في اظهار الحزن أمام العيون حتى ينال عطف الآخرين عليه غير ان تلك المظاهر تنقلب كثيراً الى درجة الايثار بالنفس من قوة العطف الخارجي فتضر الى الحد البعيد من جهة اضطرار المحزون الى اظهار الكآبة والحزن اللذين يؤثران على صحته وعلى حياته ويجلبان عليهما أشد الاضرار واذا ما تنبهت الى هذا الخطر المحدق بامتك وجب عليك ان تتلافاه بما استطعت ثم يمكنني أيضاً ان احدثك عن تلك الملابس السوداء التي رأيت المحزونين يرتدونها من الرأس الى القدم عقب الوفاة لانها بدعة غريبة يجدف بها الناس على الخالق ويظهرون بها تأثرهم من حكمته في الموت لعدم اعتقادهم بالخلود وبالحياة الاخرى وقد يكون هذا التجديف ليس فقط من انحطاط شعورهم الداخلي بل ومن فتور عقائدهم الدينية أيضاً ولعلك اذا هزأت مثلي بتلك البدعة المخالفة لكل دين وشريعة وجب عليك أن تجاهد جهاد الأنبياء في محوها مهما وجدت في مبدأ الامر

من مقاومة أو تعليل تفيض به الاقلام عن جهل بحقيقة الحياة ولا تظن استحالة محوها بل جاهد وغداً تجد نتيجة جهادك وتبصر من أعالي السماء ذريتك تعيش في اوج المرتقى الانسانى الخالي من كل شوائب تلك البدع والعادات المضرة على اوسع المعانى . غداً تظهر امامك نشأة جديدة هي تلك النشأة التي تقيم سنن الشرائع وتتلقى من فيض احكامها العادلة ما يكون سبباً لحياتها الثانية فينتشر السلام على الارض ويكون للناس فيه مسرة واذا ما انتهيت بوصف تلك المشاهد فقد انتهت هي ايضاً بصلاة الكهنة على الروح في وسط الغرفة التي فارقت فيها الجسد . وهي تلك الصلاة الحارة التي تشترك فيها عائلته وتظن انها ما أقيمت الا لاخراج الروح من منزلها الذي تهيم فيه على دعواتهم حتى اليوم الثالث ثم تهيم بعد خروجها منه بين السماء والأرض الى اليوم الأربعين . كذلك هم يعتقدون مع ان روحي وحقك صعدت في حال خروجها الى العالم الأعلى وهو ما يثبت لك فساد هذا المعتقد الذي تأصل في النفوس من عهد الوثنية

وبقي فيها حياً لا يموت ولن يموت ما دام الانسان يحن دواماً الى الحياة الدنيا ويتصور ان الارواح لا تتركها حالاً ولا تنصرف الى السماء الا بقوة الصلاة لتمسكها بالدنيا وشغفها بأن تعود الى شطرها المفصول عنها وهو الجسد

على انى ما وصلت الى السماء ودخلتها حتى أحسست بنعاس شديد لم تتخلله أحلام ولا شعور ثم فتحت عيني فرأيت شبحاً أبيض رافعاً يديه فوق رأسي وهو يقول لي قم لقد حلت ساعتك فنهضت بسرعة البرق من مضجعي وأنا أشعر ان روحي قد صارت أخف مما كانت في غشائها الحيوانى فطفت في فضاء واسع لا نهاية له وقفت منه على الحياتين الاولى والآخرة واكتشفت من ورائه كل ما سردته لك وأعلمتك به وحبذا لو منحتني فترة لاحدثك عن السماء وما فيها من نعيم وجحيم لترى الختام خيراً من المبدأ والآخرة أبقى من الدنيا والسلام

من الآخرة الى الدنيا

٢

أخي

انتقلت كما علمت من الدنيا الى الآخرة ومن الارض الى السماء في لحظة عين تمثل الحياة البشرية الاولى التي نقضيها في مهبع الآلام ومهبط الاحزان والاكدار وابلغك اليوم ان جثتي ما اخترقت عالم الاحياء بين بكاء المتباكين حتى كانت روحي تندفع في عرض الفضاء الواسع من حيث لا تدري فتخطت القمر بجباله وسهوله التي لا يدب فيها انسان ولا حيوان ولا تخترقها بحار ولا أنهار ولا يضيئها نور ولا نار سوى أشعة تستمدها من نور الشمس فتضيء بها ليالي الارضيين كأن ذلك القمر اشبه بقلب انسان يضرم فيه الدين عواطف الخير فيولي غيره احساناً ويسديه معروفاً وناهيك بما يحيط بذلك الكوكب من النجوم السابحة في قبة الفلك وهي تلمع لمعان الشمس في رمال الصحراء بل ناهيك بالسيارات الكبيرة التي تستمد نورها من أقمار

وشموس تطوف حولها طواف الشمس والقمر حول الارض وتملأها الخلائق الهادئة الصالحة التي تعيش بلا ملل ولا ضجر والتي بعد صلاتها المسائية تنام الليل كله تحت رحمة الله

اتجهت بعد ذلك نحو الشمس فكدت أحترق من لهيب حرارتها لولا انى احتميت بعطارد وهو أقرب السيارات اليها ثم وثبت الى النجوم الثوابت وهي تمتد على مدى البصر كأن لا أول لها ولا آخر وهكذا صرت أنتقل من برج الى برج حتى وصلت الى السماء فاجتزت عتبتها وطفت من مقر الأبرار الى مثوى الأشرار أتخطف المشاهد فافزع ثم أستكن وأجتاز المفاوز فاجزع ثم أطمئن ومازلت بين حيرة تنزع بى الى عدم الوقوف على مقري الذي سأرتع فيه أو سأهبط اليه وبين دهشة تأخذنى كلما تصورت الجحيم وما فيه من آلام وعذاب شديد . وليت شعري اذا كانت الدنيا برقا خلباً والعيش فيها مثل السهاد فلماذا لا يعمل الانسان لآخرته ويتلمس الوصول الى جنات الاخرة الوارفة الظلال

ولقد تراني يا أخي الآن أتمنى العودة الى الدنيا ثانية لا كفر عن ذنوبي وآثامي الماضية بأعمال صالحة وأتحمل كل ألم في سبيل الجوع والفقر والعراء وكل مضض في طريق الصلاح والاحسان حتى لا أنزل الى هذه الهوة المخيفة التي تروعني ولكني مع الحزن والاسف لا أستطيع العودة ولا نيل ما أتمناه لذا انصحك أن تسير في حياتك بما يرضي الله حتى لو سيقت لك الدنيا بحذافيرها مقابل سيئة أو عصيان أمر ربك ترفع عنها وأخشى الآخرة لان العمر وان طال سيعقبه الفناء ولا تبقى أمامك غير تلك الحياة الباقية

واذا كنت تعمل لغدك صيانة لحياتك فاعمل كذلك لآخرتك صيانة لروحك الباقية من العذاب . واذا كنت تجهد نفسك في سبيل رفع مكانتك فاجهدها أيضاً في سبيل تكميلها من العوارض استبقاء لروحك. والذي يهمني كثيراً من هذا الحديث هو شعوري بعاطفة المحبة نحوك واندفاعي الفطري لتزهيدك في الدنيا رجاء أن تتلمس النعيم في الآخرة ولو كان الزهد كما يقولون حنظل الحياة فأفضل الناس دنيا

وأخرى أصبرهم على البلاء .

على أنه يحسن بى قبل أن أتقدم اليك بالوصف أن أدحض لك معتقد الملحدين والكافرين الذين يذهبون مذاهب شتى في عدم وجود الروح وخلودها وفي عدم وجود الخالق خيفة من أن يتزعزع اعتقادك الثابت فتقع في شركهم كما وقع كثيرون من قبلك وكانت لهم الجحيم مأوى وأول شيء أقوله لك هو ان الانسان روح وجسد والروح أسمى من الجسد طبعاً لأنها جوهر نقي غير منظور يتجلى في حركات الجسد وسكناته ويبقى ما بقيت الحركة الحيوية ثم يتطاير منها ما خمدت تلك الحركة . ولا يداخلك الريب في تكييف هذه النظرية العقلية لأن عدم انفصال الروح عن الجسد قبل انقطاع حركة القلب هو لأن القلب مطابق لعاطفة المحبة والمحبة هي نفس حياة الانسان . فضلا عن ان الروح تبقى بعد الموت في شكلها البشري التام لان الانسان انسان بروحه لا بجسده وليس الجسد الا غلافا منطويا على حقيقة انسانيتنا التي هي نفس الروح والتي تحمل

معها الى السماء مالها وما يختص بها كانسان الاجسدها الفاني الذي خلق من التراب والى التراب يعود وعلى ذلك تراها تلاقي ما يطابق صنيعها في الحياة من الخير أو الشر

أما عن وجود الخالق العظيم فحسبك أن تشعر بوجوده شعوراً قلبياً ونفسيا وان تعيش على خوفه وعبادته لأنا اذا كنا نعجز عن فهم أبسط الأزهار تركيباً فهما تامافكيف نحاول فهم الازلي الابدي المحدود وفيه أسرار تعاصت على عقول الأنبياء والحكماء اكتناهها ويمكنك أن تؤيد قولي هذا بمسألة بسيطة جداً وهي ان تعمل عملا صالحاً أو ان تسير سيراً حسناً ثم ارتكب ذنباً أو سر سيراً سيئاً ألا ترى ان العمل الصالح يسمو بنفسك الى الكمال ويجعلك مرتاحا مبتهجاً وان العمل الثاني يزعزع أركان حياتك ويجعلك متألماً مغتما فما هو السبب في ذلك ياترى ؟ أهو الاخلاق أم العقل أم التربية أم الشعور . لا هذا ولا ذاك ؛ انما هو الضمير والضمير سر من أسرار الله في الانسان . وما القول بأن العقل هو الموجد لهذا الضمير ولكل شعور نفسي

يدليل لافتراس الحيوانات لبني الانسان خلوها من مزية التعقل الا من قبيل المراء لأن الانسان نفسه يفترس الحيوانات ويأكل من لحومها على اعتقاد منه انها خصت لغذائه . وبالاجمال فان وجود الاله العظيم أمر لا يحتاج الى بيان وشرح ويكفيك برهاناً ان فولتير الفيلسوف اعترف بوجوده بعد أن كفر وقال

وان نظرنا الى الأفلاك دائرة
فكلها عبر تبدو لمعتبر
فانظر اليها وقل سبحان عزته
رب القضاء ورب الحظ والقدر
أفهامنا أبداً ليست لتدركه
مهما تطل باعنا تفضل أولي قصر
وفي ضميرك صوت أمره حكم
ونهيه حكم من آيه الغرر
ورسله شرحوا معنى الحياة لنا
وعلمونا بوحي منه منحدر

فليتق الله ذا الخلق المعزز وا

يعبده بالقول والأعمال والفكر

الى الآن بسطت لك معنى الحياة ومغزى ذلك السر الذي تستطيع به ادراك كنه الخالق العظيم فلأنتقل بك الى وصف الفردوس متاع الخالدين وملجأ التقاة الصالحين لكي أصور لك رغد الجنة وما فيها من النعم الالهية التي تعلمنا ان الآخرة خير للانسان وأبقى

على ان أول شيء أبهج نفسي وحرك عواطفي هو الفناء النورانى المتموج في برد السناء الالهي والمستفيض بالبركات المنعشة للأرواح الهائمة في محيطه اللانهائى .فناء لم ترعيني أجمل عنه منظراً ولا الطف صورة فلا تقل لي شمساً ولا فلكا ولا نوراً ولا قمراً ولا شفقاً ولا فجراً ولا نسيما ولا طبيعة ولا لذة ولا فرحاً ولا عظمة ولا غنى ولا جمالا ولا جلالاً بل قل لي ما هو النعيم وماهي أسراره وما هي الغبطة التى يراها المتنعمون فيه فأقول لك حسبك من الوصف انه محيط سماوي كله نقاء وصفاء وغبطة وهناء وراحة لا يصورها

فكر وسكون لا يخالطه ضجة وسعادة لا يعتورها شقاء ونور لا يكدره ظلام وفرح عظيم لا يزول ولا ينقرض تشعر به الأرواح الصالحة التي تعالت عن سيئات العصاة والخاطئين في الدنيا فكان لها مثل هذا التعالي في الآخرة والجزاء من نفس الجزاء والله خير العاملين وولي المتقين .

ثم ماذا أقول لك وأصف من هذا النعيم وهو مقر الهناء الداخلي الذي يعبرون عنه بالمحبة والاحسان وراحة الفكر والضمير بل هو السعادة التي يبحث عنها الانسان في الدنيا ويجاهد للحصول عليها وهي تزداد بعداً عنه كلما ازداد في الشهوات والامجاد الزمنية . لأن السعادة لا توجد الا في انقطاع النفس عن ملذاتها كمبتغى النغم العالي لا يجده الا في انقطاع الوتر

لهذا ترى هنا الطهارة الحقيقية وهي تشرق من الوجوه والملامح. والتقى وهو ينبثق من القلوب والعواطف والاخلاص وهو يتجسم من المشاعر والحاسات والورع

وهو يجول بين الدماء والشرايين حتى لتجدن السلام مظلا على الجميع والوئام شاملا كل الارواح التي لا تنسب الى ذاتيتها شيئاً من الخير بل تعتبر كل الأشياء مقبولة ومنسوبة الى الله وهو تعالى يتولى قيادتها ويسيرها بحسب مشيئته .

ولقد جلت بين تلك الأرواح الصالحة الطهور فوجدتها فرقاً فرقاً وفئات فئات لكل منها حسنة أو حسنات تملأ صفحات حياتها . فمن فئة ضحت النفس لخدمة الانسانية ومساعدة المشروعات الخيرية . الى فئة ناصرت المظلومين وآوت الغرباء وأطعمت الجياع . ومن فريق كرس حياته لتربية اليتامى والفقراء الى فريق كسا العرايا ووالى الصدقات ومن قوم علموا الناس معنى الحياة الدنيا لينالوا نعيم الآخرة الى قوم ساروا على مبادئ الدين ونفذوا تعاليمه الحقة . وكل هذه الفرق تحليها الفضائل والكماليات الانسانية التي لا تشوبها شائبة رياء ولا نفاق ولا حسد ولا بغض ولا أنانية ولا ظلم ولا اغتياب ولا نميمة ولا احتيال ولا أية معصية من المعاصي التي نهى الله عنها في كتبة المنزلة . غير ان

أكثر الفرق قربا من الله وتنعما بسمائه هم الذين قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر ونشرنا على الارض السلام وجعلنا للناس مسرة . هم الذين باعوا متاع الدنيا بمتاع الآخرة الباقي

أما عن السلام الذي تعيش فيه تلك الأرواح فحدث عنه بما شئت ومن السلام كما تعلم يحصل كل سرور الخير والخير متأت من الطهارة والطهارة من قوة الايمان بالله ومن آمن بالله نجا من شرور الدنيا ومتاعبها وفتحت أمامه أبواب النعيم المقيم .

وليس الغرض من الايمان بالله الا أن تحب الله كما تحب نفسك وتعامل الناس بمثل ما تريد أن يعاملوك به أي أن لا تقاوم الشر بالشر ولا تحرض عليه ولا تجنح الى الذم والتشهير ولا الى الانتقام والختل والكذب والنميمة وأن تبتعد عن الاضرار بالناس وعن الفساد بكل أنواعه ما استطعت وأن تجعل للتسامح سبيلا الى نفسك لأنه أصل كل خير كما ان التعصب مرجع كل بلاء والله لا يحب المتعصبين . وأن تزين نفسك بثوب الاخلاص وتنزهها عن

كل ما يشين وأن تكون عفوفاً قنوعاً لأنهما ينبوع كل سرور . وبالاختصار انك لو عرفت مقدار هذا الايمان وقيمته واتبعته بكل اخلاص لخرجت من الدنيا الى نعيم الآخرة ولأحسنت الى نفسك والى وطنك وأفتكر حسنا تعمل حسناً كما انك اذا افتكرت شراً تصنع شراً

بعد ذلك خرجت من دائرة النعيم النورانى الى هاوية الجحيم المظلم فرأيت منظراً مفزعاً يضل فيه النهى ويضيع الحجى . رأيت كهوفا مظلمة بل أشد ظلاما من حلكة القبور ومغاور جدباء وغابات كثيفة هواؤها شديد يحدث الدوار ووهيجها متناه يهصر العواطف .وكلما انتقلت في ساحاتها الواسعة كلما هالني المنظر لازدياده في حلكة الغسق وفي الاضطراب وطرق التعذيب المريع فقلت ما أشبهك أيها الجحيم بالحياة الانسانية الشيطانية لان هنا سحبا كثيفة تخيم على قمم الصخور وتختفي وراءها أرواح اللصوص وقطاع الطرق كما كانت تختفي في مغاور الارض ووراء الجبال.

ولو انك كنت في مكانى ونظرت هذه المشاهد المزعجة

لرأيت العذابات على اختلاف أشكالها والآلام تنهش وتهشم بل لرأيت ما جنته يد الانسان . وفي أي مضيق يعيش الخطاة . وانا على يقين بأنه سيكون لك من كلامي موعظة وارشاد وأنت لا تزال شاباً حسن الظن بالدنيا وبأهلها ولم يفتك بعد وقت الانتباه والاستدراك .

ولقد سرت تحت هذا الظلام الدامس خلف حارسي فاحسست حين السير ان حراباً تخترقني فلم ابال لأن الخوف يغلب الالم ثم انسللنا من ظلمة الى ظلمة ومن مضيق الى مضيق نخبط كالعميان وكأنني أسمع أصواتاً مخيفة وأرانى الخوف اشباحاً تقتتل في السواد فاستغثت بحارسي ولكنه طمنني بعذوبة صوته وقال لي انظر على مقربة منك فهذه اول درجات الجحيم التي تعيش فيها أرواح المخادعين والمرائين والمغتابين والنمامين والكاذبين والطماعين والمنافقين قلت ما أكثر عذابها وآلامها فقال ان الخطايا الثقيلة تخز الضمير وتحرقه فثارت قواي وكدت أصعق في مكاني لولا انه ساعدني بيده وأخذني من وراء غمامة سوداء الى منحدر أشد سواداً

سمعت فيه ولولة وأنيناً وحشرجة شديدة فكدت أقضي من الذعر ... تغلب علي النعاس الذي يداعب اجفان الخائف المنهوك ثم استيقظت فسمعت حارسي يقول لي بصوت خافت انظر الى ما وراءك فهنا الدرجة الثانية التي خصت بأرواح السارقين والمحتالين والنشالين والنصابين والمزورين والسكيرين ثم انتقلت الى الدرجة الثالثة وفيها المقامر والمرتشي والمغتصب والفاجر وفي الرابعة الملحدون والكافرون بالله وفي الخامسة القاتل والمنتحر وقاطع الطرق والظالم وآكل حقوق اليتامى والفاسق والزاني ولا اعلم كيف أصف لك الجحيم وأنا مرتاع من رؤيته مع انه لم يحو ناراً وسعيراً كما يقولون وتعالى الله من أن يعذب الانسان ويأخذه بزلاته وحجوده ولكنه مملوء بأرواح تئن وتبكي بعيون دامية من وخز ضميرها على ذنوب ارتكبتها وجرائم اثتمتها في الدنيا وتزداد آلاما كلما اقتربت من باب النجاة حيث تشعر بثقل آثامها ولان تذكارات الاثام والمعاصي ترافق فاعلها وتعذبه بكل عذاب

واذا ما قلت لك ان السماء خالية من جحيم مؤجج ونار

محرقة فلأن الأرواح بعد أن تترك جسدها البالي في الأرض تشعر بعد صعودها الى العالم الأعلى بخطاياها وشرورها وآثامها العديدة التي حملتها اليها النفس الارضية الامارة بالسوء، فتتألم ألماً شديداً لا يرطبه بكاء ولا تزيله توبة حتى تراها تتقلب يميناً وشمالاً من كثرة الوخز والتأنيب وتتمنى لو القيت في آتون من النار لتفنى وعذاب ساعة خير من عذاب مقيم

ولاتظن ان الصلاة المتابعة على الارواح في الأرض تقلل من عذابها أو تنقذها من جهنم والسعير بل اعتقد ان الصلاة عقيدة اتبعت لحمل الناس على القيام بواجباتهم المفروضة عليهم نحو الله وتوجيه عواطفهم الى الآخرة التي هي الدار الباقية للانسان ولو توقى المحجومون من عذاب الآخرة بواسطة صلاة غيرهم عليهم والتماس الغفران عنهم لدخل جميع الناس جنات الخلد. ويكفيك دليلا ان القصوص وما والاهم من الاشقياء والمخالفين لاوامر الرحمن تتلى على نفوسهم الصلاة وتقام لهم الحفلات الدينية

كما تقام لغيرهم من الصالحين الاتقياء

واخيراً انى احدثك ببعض ما شاهدته بعيني في وسط ذلك الجحيم الذي تملأه شياطين الانس التي استحالت طبيعتها الانسانية الى الطبيعة البهيمية وكانت اشر على الانسان من الذئاب والوحوش الكاسرة فقد سمعت صياحاً وضوضاء وانات وصراخاً وعويلا ورايت شياطين تهب من الهاويات ورعداً قاصفاً يصعق الخطاة وعيوناً مفتوحة لا تبصر ولكنها تبكي دماء من شدة عذابها وسط تلك الهاوية السحيقة القرار . رايت اشباحاً ترتفع وتنخفض بشدة من بلاء ما هو نازل بها من ثوران الآلام . رايت ارواحاً تندفع فتتلوى وتتمدد ثم تنفرج فتنقوس كأنها في اتون محمى او في حمام حار ثم رايت اشباحاً تتطاير من مكان الى مكان كالملسوع فلا تجد ملجأ لتخفيف غليان عذابها فارتعت وعدت ادراجي مختفياً وراء الظلمة كسائح انهكه التعب ولم يجد سوى رمال الصحراء فيتوسدها خائر القوى . وقد بقيت رامي مرسحاً للافكار المتضاربة التي لم تدع لي مجالا

لسماع صوت ضميري الذي كان يناديني احترس لنفسك لان كل خطأ ارتكبته يدنيك من خطر قريب وقوعه . تذكر انك ارتكبت ذنوبا تستوجب عقابك تذكر ان صواعق الجحيم ستنقض عليك وتحطمك تحطيما

وكل هذه المشاهد التي وصفتها لك اثرت في فالتني وسأحدثك عنها وعن كل ما سأشعر به اذا واصلتني بعد القطيعة واخبرتني عن كل ما حدث وسيحدث في العالم الارضى والله يرحمك من هذا الهول الشديد ويجعل النعيم مقرك والجنة مثواك

من الاسرة الى الدنيا الى الاخرة

٣

أخي

ان الفراق الابدي الذي حال بيني وبين لقائك والقطيعة التي حرمتني رؤياك جعلاني في أشد حالات الهم والبلوى وكثيراً ما حاولت ان اقهر عواطفي واتغلب عليها حتى لا ادع للحزن سبيلا الى نفسي ولكني كنت كمن يحاول مستحيلا او يتطلب محالا . ولولا بقية امل في الحياة لعانقت الموت وتخلصت من آلامي وشجوني

انى كلما نظرت الى الدنيا اراها بغير العين التي كنت اراها بها من قبل فلم تعد تبهجني زهورها وشمسها وسمائها الصافية الاديم ولم يعد صوت الناي والعود الذي كنت اصبو اليه يلذني بنغماته بل ولم تعد بنات الهوى تأسرن قلبي وتلعبن بعواطفي . وفي ما اودعته كتابي هذا لسفراً تقرأ فيه تاريخ حياتي وتاريخ الآلام التي تحملتها قبيل قطيعتك دون ان

ابوح لك بها حتى افترستني واذبلت زهرة صباي وجعلتني شيخا في سن الشباب .

وما كانت تلك الآلام الا من شرود نفسي في الهوى شروداً كاد يفقدني الشرف ويلطخ جبيني بعار لا يمحى ولو كنت سمي لثأرت لي من نفسي وارحتني من ويل مستطير هبط بي الى الحضيض والشقاء .

انا ياأخي اشبه الناس والاشياء بقوس قزح حيث خرجت من وراء غمامة اليتيم السوداء فتركتني امي اهيم في كل واد ثم ابرقت هنيهة في سماء الحياة بعد ان بلغت سن الحلم بما ورثته عن ابي وزادني الفراغ والجدة انغماساً في الشهوات والمعاصي حتى ولجت عتبة الشباب فوقعت في هوى غاوية سلبت لبي وعلمتني كل ما حرمه الله وما زلت كالذباب اقع على كل قذارة الى أن سقطت على مائدة الميسر فكانت خاتمة مصائبي وانحدرت بعدها الى ما وراء غمامة سوداء اشد حلكة مما اتيت بها فعشت بين نارين نار الهوى ونار القمار وثالثهما اشد وهيجا وهو نار الفقر

المدقع الذي وقعت فيه الآن وجعل حياتي يأساً وعيشي عذاباً

مسكين انا يا اخي عدمت لذة الحياة والعيش في ابان الشباب وصرت كمن يأكله القنوط فيطلب سيفاً لينتحر . تحديت الطريق الى النيل لادفن نفسي في جوفه لكني رجعت من حيث اتيت انظر الى أمي وشقيقتي وقد تركتهما تحت رحمة الله بعد ان بددت اموالهما واموالي فنظرتا الي ودموعهما كالشلال تنهمر كأنهما تضربانني بسيف النقمة على ما جنيته عليهما ثم رايتهما تأكلان من فتات الموائد فلم اجرأ ان اسألهما كسرة خبز اسد بها رمقي وقد اضنانى الجوع وافنانى الظماء

التفت يميناً وشمالاً في فضاء البيت الساكن الصامت فوجدته خالياً من اثاثه ورياشه خلو شقيقتي من حليها كأنه حانوت تاجر افلس من سلعه فأيقنت اني جنيت على نفسي وعلى اقرب الناس الي بسوء سيري وعاد الي الفكر ثانية للانتحار ولا اعلم لماذا اطلب الموت ثم اخشاه عند وقوعه .

انطرحت منهوك القوى لا اعي ما حولي وعند ما

استيقظت وجدت والدتي جاثية قربي تحرسني بعينيها وقد ادماهما البكاء فراعني منظرها وعرفت مقدار حب الوالدة لأولادها بل علمتني بشجاعتها انه لا بد لي من الصبر والجلد حتى اعيد بيدي ما فقدته

اغمضت عيني حتى لا ارى ما يحيط بي وماجلبته نفسي ويدي فاشتد بي وخز الضمير الى درجة فضلت فيها الموت على الحياة وحقاً لو اطاف بي طائف المنون في تلك الساعة الرهيبة لوجد نفساً تتوق اليه وتعانقه عن شوق

تذكرتك ياأخي في ذلك الضيق والصديق يعرف عند الشدة فهممت لاكتب اليك واعتذر لك عما فرط مني والعفو عند المقدرة ولكن ما اكبر شقائي حينما رايت كتبك الأخيرة تنبئني بالفراق الأبدي

قرأت تلك الكتب المرة بعد المرة وانا لا اصدق ما فيها ولا اتصور انك تركت الدنيا الفانية وسكنت تلك السماء التي عدت لامثالك من البررة الاتقياء ولكنني تأكدت جيداً انك تعاليت عن مساوئ البشر ومظالمهم

واتخذت لك حصناً تدفع به خداعهم الذي أوقعوني فيه . فما اطيب كلماتك التى جاءت بلسما لجراحي ومصباحاً يهديني في طريق الحياة ويكفي انها علمتني ان الانسان خلق للجهاد في الدنيا بل صيرتني اعتقد انه لا بد لي من ان اعيد ذلك المجد الذي اضعته وأن اعيش في حياتى بما يرضى الله ويرضى ضميري والناس .

تلك كانت افكاري الا انها خطرات فكر لا تلبث ان تتبدد اذا لم اجد قوة تنشلني من ضيقي وتأخذ بيدي الى طريق السلام وتفكرت طويلاً فتذكرت بعض الناس الذين غلبوني على امري واستضعفوني على زلتي فحسنوا لي سبيل الهوى وقلت فلاذهبن اليهم لعل واحد منهم ينقذني من فقري ويمد الي يد النصير في طريق الحياة الى سأجتاز عتبتها الآن

ولست في حاجة لان اشرح لك ياأخي ما لقيته منهم فقد ولى اكثرهم هربا مني وتجاهل البعض الآخر معرفتي على حين اني ذهبت ضحية تحريضهم لي على الاسراف

والتبذير في سبل الهوى واماني النفس ومشتهياتها حيث كانوا يحسنون لي القبيح فاتبعه ويقبحون لي الحسن فاحيد عنه حتى اذا هلكوني وسلبوا اموالي فروا من حولي مصوبين نحوى سهام الملام والتأنيب ساخرين مني ومن تهوسي في طرق الغواية والضلال

اني لا اقبح الغاوية التي سلبت عقلي ولا مائدة اليسر التي اكلت مالي وانما اقبح اؤلئك القوم والعنهم بكل لسان لانهم احتالوا علي حتى الحقوا بي الاذى والفقر الموقع

عدت الى منزلي بعد طوافي عليهم وقد خطر لي ان اصلي لاني وجدت الصلاة اخر ملجأ ينزع اليه ضعيف مثلي يئس من معونة الناس فصار في حاجة الى معونة الله فركعت امام ايقونة ينيرها مصباح ضئيل واخذت في صلاة طويلة حارة زادتني قوة على احتمال الهموم التي جلبتها بيدي على نفسي ولكني شعرت عقب صلاتي ان صوتي لم يصل الى عرش الله لان كل ما قلته كان موجهاً الى تلك الايقونة دون سواها وبعد سكوت طويل اتكأت على حافة النافذة

انظر الى الفضاء عساه ان يأخذ من همومي شطراً يبدده بين جوانبه المترامية ومن المستحيل أن أصف لك حالتي اذ ذاك لانها كانت تفوق الرؤيا لانني كنت اخاطب الله لا كموسى في جبل الطور امام العليقة الملتهبة وفي وسط البروق والرعود بل كما يفعل الطائر لا وجهة له في الارض اوفي السماء

انتصف النهار والجوع قد برح باحشائي فهممت ابحث عن كسرة خبز في زاوية المنزل ولكنني خفت ان تراني امي أو شقيقتي فانسللت الى الردهة حتى يممت الحي فاخترقته الى المحطة ومنها قصدت قرية يقطنها شيخ من اصدقاء والدي لي دلة عليه فتلقاني بالبشر ثم اظهر لي منتهى حزنه على ما اصابني واصاب عائلتي وجاد لي بعشرة ليرات احسن بها حالي بعد ان كتب لي توصية الى احد التجار بان يتخذني عاملاً بين عماله فشكرته على ما احسن ووهب وسرت في طريقي وكان الليل قد اقبل فطلبت من راع صغير ان يدلني على الطريق لأئتنس بوجوده فسار معي الى ان وصلت الى المحطة وعندها اخرجت ليرة من الذهب وقلت له خذ هذه

فنظر الي وقال ما هـذا ياسيدي اتظن اني اقبل منك مكافأة على خدمة صغيرة لم اتعب في تأديتها . قلت انك تعبت كثيراً ياالخي ولا بدان اعطيك مما اعطاني الله فتبسم وقال ان الله منحني الحياة للعمل والقوة للجهاد اما هـذا الذهب الذي اصبح عند الناس الهـاً ثانياً فأنا لا اقبله قلت ولـكنه ينفع الانسان في شراء حاجياته قال اذا كان الامر كذلك فأعطني اذن القطعة لأن صديقي في حاجة الى اشياء كثيرة من لوازم الحياة بعد ان اصابه المرض فأقعده عن العمل .

دهشت من كلمات هذا الراعي بل عجبت من سلامة نيته وطهارة قلبه وكيف انه يؤثر نفس صديقه على نفسه وقلت في نفسي الانه بعيد عن معترك الحياة ام لانه جاهل تصورات الدنيا ثم بعد تفكير قليل حاولت ان استضيفه في منزلي فاعتذر لـكثرة العمل ولانه غير متعود البعد عن اهله وانصرف اسأل له السلامة ولنفسي السعادة شتان بيني وبين ذلك الراعي فهو سعيد راسه مملوءة

بالايمان ونفسه مظللة بأجنحة الملائكة تضم عواطف شريفة ليس لها اثر عند اهل المدن الذين استغوتهم المدنية الكاذبة فتمادوا في الكذب والنفاق والخداع والدعارة والرجس والفجور فاصبحوا اسرى العواطف السافلة التي تحط من قدر الانسان فيظنها الحياة والسعادة

ولا اخفي عليك اني ما يممت منزلي حتى وجدته ساكنا فقرعت بابه واذا بصوت خافت يقول من الطارق قلت انا ياوالدتي لقد جئت من مكان بعيد ابشرك بأمر جديد يفتح لنا طريق الهناء ففتحت الباب على عجل وقبل ان اقرئها السلام نفحتها بالليرات قالت ومن اين اتيت بها أعدت الى بيت الميسر ثانية قلت كلا ياماه وانما هي صدقة من صديق لأبي فنظرت الي والدموع تسيل من مآقيها وقالت ويل لك الم انصحك الف مرة بأن لا تسأل الناس لان الموت خير لنا من السؤال

وجمت في مكاني ثم شددت عزيمتي وقلت خففي عنك الحزن فما ذهبت الى الصديق لالتمس منه صدقة او احسانا

وانما لاطلب عملا اعيش منه واحيي من ثمراته فرق قلبه علي ومنحني تلك الهبة الصغيرة وكتاب توصية لعميل له هنا وبينما انا في الحديث واذا بصوت شقيقتي يقول : دعيه فقد جلب علينا الشقاء وانزلنا بها الهوان ثم خرجت الينا وصرخت في وجهي قائلة اعدت لنا ثانية تحمل عاراً جديداً اذهب من حيث اتيت لا اعادك الله فأخذتها والدتي من يدها وتركاني لا احري جواباولا راي لي ابديه وانسلات الى غرفتي وكلي آذان منصتة الى حديثهما .

انقضى الهزيع الثاني من الليل فلم اسمع حولي غير همس الدقائق المتكلمة في مرورها البطيء عن احلام النيام ولا ارى غير والدتي تروح وتجيء الى غرفتي فتنظر الي وانا متوسد فوق مضجعي نظرات تكشف عن حزن واسف فتزيدني الماً فوق المي الشديد الذي اراني الموت خير سند يرتاح اليه قلب البائس واحسن راحة للنفس المتألمة

هجرت فراشي وفي قلبي شوق عظيم الى مرآى السماء فأرتني الاشباح تلك الساعات الطويلة التي كنت اقضيها في

قاعات المراقص وأندية الميسر وقد عبثت فيها مظاهر الخلاعة بمظاهر الآداب فكدت أذوب حزنا واقضي وجلا ولبثت بين مساورة المهموم حتى توارى الليل وبسط الشفق رواقه على الأرض فارتديت ثيابي ونزلت الى قهوة اقضى فيها ساعة أو ساعتين فتلاقيت بصديق لي من أقراني التلاميذ تدل سيمته انه أصبح (من) أهل المكانة العالية والمناصب الرفيعة وبعد ان حييته وحياني قال لي لقد وصلتني أخبارك فلم أستغرب لتوقعي حدوثها بين حين وآخر حيث قضيت حداثتك في البطالة والكسل ولو قبلت نصيحتي الأخوية يوم كنت واياي في غرفة التعليم لاصبحت اليوم في مصاف اخوانك وكلهم حائزون على وظائف عالية ومناصب كبيرة رفعت شأنهم وصيرتهم في عداد أصحاب الكلمة المسموعة في بلادهم ثم سألني عن حالي فسردته له من الاول الى الآخر فقال حسنا تعمل الآن واني على استعداد لمساعدتك في ايجاد عمل لك ان لم تنجح اليوم وما عليك الا ان تزورني في منزلي في أي وقت تريده ثم ودعته وانصرف

بعد ان أعلمني انه قاض في المحكمة

قمت من القهوة والله أعلم بحالي وبهواجسي ودخلت على التاجر خاشع الطرف اقدم رجلاً وأؤخر اخرى ثم قدمت له التوصية فتلاها وقال لي ألم يسبق لك عمل قلت لا يا سيدي قال حسنا فاذا أردت ان تمرن عندي زمناً ماعلى البيع والشراء بلا مقابل حتى اذا أظهرت همة وذكاء عينت لك راتباً كباقي مستخدمي فتململت في نفسي ثم قلت له ولكنني في حاجة شديدة الى أجرة قليلة تسد رمقي ثم أخذت أسرد له قصتي وما اصابني فطيب ولده خاطري كثيراً وأجلسني بجانبه وقال لي سأجعلك مساعدي براتب خمسة ليرات

ولا اطيل عليك القول اني اصبحت بعد مرور زمن قليل الصديق الصادق لهذا الشاب فأحسن علي كثيراً وبدل عسري يسراً وذلي عزاً وقهري هناء . وفي تلك الاثناء أخذ يزورني في منزلي ويتحبب الي ويظهر ميله الشديد الى اقترانه بشقيقتي حتى اضطرني أن افاتح والدتي في الامر فلم تأب عليه ما طلب ومن ذلك الوقت صار البيت

بيته يدخل اليه بدون استئذان

مسكين أنا يا أخي لم أر ما وراء الاكمه ولم أتبصر في الامر لسلامة نيتي التي كانت تريني ان لافساد في الدنيا وان الانسان منطو على الاخلاص والوداعة وعلى حب اخيه ثم رأيت الفرح والرخاء فاندفعت في طريقه وأنا أحسبه طريق الشرف وما كان الاطريق الدنس والخطيئة فانا أخطأت ولكني لم أجن

اتخذ ذلك اللئيم المال ترسا له يجني على فتاة وعلى أخ لها وأم مسكينة أكبر جناية . اخترق حرمة الشرف . جنى على العفاف ثم غير رأيه وانقلب لا يريد زواجا ولا قرانا .

فهمت سوء موقفنا . فهمت ان الصداقة التي كان يظهرها لي ما كانت الا خداعا ونفاقا . فهمت ان الخبز الذي أكلناه كان خبزا ماؤه الدنس وملحه الفساد وأن الملابس التي تسترنا مشتراة بمال الشرف وثمن العرض شعرت ان العقد الذي يزين عنق شقيقتي ثعبان شرس يلسعها ويخنقها . أظلمت الدنيا في عيني فصحت صيحة قوية وانطرحت على الارض مغميا علي .

من الآخرة الى الدنيا

٤

أخي

لاأزال الى الساعة هائما بين النعيم والجحيم لا أستقر في مكان ولا أعلم أين مقر الرحمن جل جلاله لازيدك بيانا عن معنى الحياة ومن أين جئنا والى أين نذهب ولكن الذي زادني اندهاشا ودعاني الى تعريفك به هو أني رأيت بين المتنعمين في جنات الخلد ألوفا من عبدة الاوثان علمت من حارسي انهم أحسنوا في دنياهم عملا وخدموا الانسانية عن شعور صادق ومثل صحيح وقد رأيت بين تلك الارواح لفيفا من الرسل يلقنونها كتب الله ويعلمونها ما اشتملت عليه من المواعظ والحكم وهي فرق فرق تتلقى تلك الآيات البينات بسرور وابتهاج لانها جاءت منطبقة على مبادئها وأعمالها في الدنيا

وقفت أسمع تلك المواعظ فرنت في أذني تلك الآيات

« من كان منكم بلا خطية فليرجمها بالحجر » ثم سمعت قول يعقوب « اسمعوا يا اخواني الاحباء اما اختار الله فقراء هذا العالم » وقول أيوب « الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركا » وقول الجامعة « ان الكل باطل وقبض الريح » حينئذ علمت ان الانسان خلق للتجارب ومن الواجب عليه ان يعرف ويشعر انه خاطئ لكي ينال الغفران ويحصل على الحياة الابدية

وبينما أنا مبتهج من تلك الحكم العالية تلقيت كتابك فاثر بي ما حل بك ونزل باهلك وما جلبته يدك من فقر وعار وقلبك من ذل وهوان الا أن لك في كتاب الله لاعظم مواس وأكبر مسل . ولعلك تقرأ اياته فتخفف من غلوائك وتعتقد ان الشقاء الذي هبطت اليه ماهو الا طريق ينفذ بك الى السعادة التي يبحث الناس عنها فلا يجدوها وهيهات أن يصلوا اليها ما داموا يظنونها في الترف والبذخ والرفاهية وكثرة المال

لقد كنت غنيا فصرفت مالك في الباطل على ظن منك أن في الملاذ وراحة النفس كل سعادة ولكنك لقيت فيهما كل

عذاب وتعب. أصبحت فقيراً فلم تعتمد على نفسك في اسعادها بل بذلت جهدك في كسب المال فكان المال أكبر الويلات عليك . حرت في أمرك فتولاك القنوط واليأس ونزعا بك الى الغضب ولكن الحق أقول لك أنه يجب عليك أن تحترس من سورته واصبر صبر الكرام لان الصبر من فضائل الايمان .

وما كانت تلك المصائب التي حاقت بك الا مما جناه والدك عليك وعلى اخواتك وكم من آباء تركوا أبناءهم وبناتهم في ظلامات الجهالة فشبوا ولاهم لهم الا اعطاء النفس مناها حتى اذا استفرغوا حياتهم وشرفهم في سبل الضلال حنقوا على الارض والسماء وجدفوا على الخالق سبحانه وتعالى مع أنه ميزهم على كثيرين من عباده بأن وهبهم من نعمه مالا جزيلا تصرفوا فيه تصرفا سيئا ثم عادوا يستمطرون لعناتهم على حين ان ملايين من الناس ولدوا فقراء لكنهم قنعوا بما قسمه الله لهم فكانوا أغنى الناس وأسعدهم حالا وأنعمهم بالا ولهؤلاء نعيم آخر وهو نعيم الآخرة

ولا يهولنك أمر شقيقتك الى هـذا الحد البعيد فما ارتكبته وظننت فيه العار الذي لا يمحى الا أقل مما ارتكبته أنت فقد خدعها ذلك الشيطان كما خدعت من قبل تلك العذراء المسكينة وأسقطتها الى هاوية الدعارة وقضيت عليها وعلى عائلتها وعلى نفسك وعلى أهلك ولا غرابة فيما ارتكبت وأجرمت لانك عشت حياتك تؤاخي الاشرار وتعادي الابرار وتتخذ من أصدقاء السوء أعوانا فكانوا عليك أضر من الاعداء.

أراك تنظر حولك فلا تجد لك صديقا ولا حبيبا مواسيا ولكني أكرر عليك القول بان كتاب الله وحده خير صديق لكل تعيس مثلك ما دامت الانسانية وكل عواطف النفس تميل الى الخداع أكثر ما تميل الى الرفق

كذلك أشير عليك أن لا تضع نفسك موضع المنتقم من ذلك الشخص الذي ثلم صيتك وجرح شرفك لا لكي تسلم فقط من تلك الاسواء التي تصيب المنتقمين بل لان لذة الانتقام مهما طالت لا توازي عذاب دقيقة في تلك الهاوية

الجهنمية التي أعدت للمعتدين على حقوق الاله العظيم القائل «لي الانتقام»

ثم واذا كانت الاهانة التي وقعت منه عليك لا تزول باهانتك له واضرارك به فقد تزول بصفحك عنه وغفرانك عن جريمته . وان من السهل جداً أن تجرد ذلك الشخص من اثمه العظيم لتحبه كنفسك وتكون قد عملت في الوقت ذاته بوصية الله « أحبوا أعداءكم »

على ان الذي يهمني كثيراً من أمرك هو أن تتبع في سيرك طريق الصالحين الذين يزدرون بالدنيويات فلا يقلقهم نقصانها ولا يبطرهم فيضانها فان توفرت لهم الثروة استعملوها كعارية وأحسنوا استعمالها غير مبالين بها ان زادت أو نقصت وان كان الفقر نصيبهم لا يكترثون للغنى ولا يأسفون عليه

وقد لا أجد لك عذراً في عدم اتباع هذا الطريق القويم الذي لا تلاقي فيه مشاقاً ولا آلاماً بعكس ما لاقيته في طريق الاثام ولعلك اذا نظرت الى ماضي حياتك وما قاسيته من الاهوال وعذاب الضمير ومخاطر اللذات والتفت بعد

ذلك الى أهل التقوي والورع لرأيتهم في سلام وطمأنينة ضمير لا يشكون ضيما ولا هم يحزنون

صحيح ان التمسك بالفضيلة التي هي من حقائق الايمان عند الصالحين من الصعوبة بمكان ولكن فيها السعادة الحقيقية التي تبحث عنها الآن. ولعلك تتذكر قصة هرقل في أساطير الاولين وكيف أنه وقع بين الرذيلة والفضيلة فكانت الاولى تدعوه الى الراحة والمآكل الشهية والخمور الطيبة والجلوس على الطنافس الثمينة وسماع الالحان المستحبة وكانت الثانية تدعوه الى عبادة آلهته واتيان الاعمال الصالحة والسعي في خدمة البلاد التي يعيش فيها ثم قالت لاختها الرذيلة أف لك فانما أنت تهيجين في نفسك القابلية بالاطعمة والاشربة لتأكلي وأنت غير جائعة وتشربي وأنت غير عطشى وتنامي على الاسرة الوثيرة لا طلباً للراحة بل اجابة لداعي الكسل وتقضي ليلك في الشر ونهارك في النوم ومن هم الذين يتبعونك اليسوا هم الذين تصير أجسادهم ضعيفة في سن الشباب وعقولهم واهنة في سن الشيخوخة أما الذين يتبعوني

فيعيشون عيشة اللذات الصحيحة لانهم يكونون أقوياء
يتنعمون ويجدون الراحة لذيذة والطعام شهياً ويحوزون
رضي الآلهة عنهم وحب أصدقائهم لهم وافتخار أوطانهم بهم
ومدح الناس لذكرهم فتحمل يا هرقل المصاعب حباً في
الحصول على السعادة الحقيقية فاتبع هرقل الفضيلة لانها كما
علمت لك الطريق المؤدية الى السعادة وهذه الطريقة هي
طريقتنا نحن أيضاً لاننا نعرف الاله الحقيقي الذي لم
يعرفه هرقل والذي مخافته رأس الحكمة ونعرف أيضاً طريق
الحق والحياة والصلاح والسعادة وقد رووا عن هرقل روايات
كثيرة تشهد كلها بانه فاز ونجح بالاقدام والثبات وكلاهما
يغلبان الصعوبات في كل زمان ومكان .

بقيت لي كلمة وهي ان الانسان لم يخلق ليستريح على
مضاجع الرفاهية والنعيم بل خلق للعمل والجد والاقدام وكل
الناس كما تعلم صيادون القاهم الرحمن على شاطئ الحياة ليصطادوا
ويقتاتوا ويكونوا لهم فوق ذلك زاداً يصلون به الى جنات الخلد
واني راجع الآن الى مقري فكن مستريحاً فان روح

أخيك تحوم فوق رأسك غير واجدة الراحة الابدية الا بنجاحك في حياتك وفوزك في كل أعمالك ان لم يكن بالجد والاجتهاد فبالصدق والاستقامة وان لم يكن بالجهاد والاقدام فبالاخلاص والوفاء . وما أسعد الرجل الذي يجعل دائماً نجاحه وفوزه في معترك الحياه مبنيا على قواعد الانصاف بالصفات الحسنة ومكارم الأخلاق والسلام عليك ورحمة الله

من الدنيا الى الاخرة

٥

أخي

اني لفي حزن شديد لا يمكن احتماله ولا وصفه فقد جر علي جرم ذلك الشاب الارزاء والبلايا فافقدني والدتي وشقيقتي في يوم واحد بل في ساعة واحدة وتركني وحيدا لا أجد تعزية لي ولا سلوى .

وما عساي أن أشرح لك سوى أن شقيقتي بنست فانتحرت وما هي الا لحظة حتى تولى والدتي غم شديد أعقبته شهقة ذهبت فيها روحها الى خالقها تستمطر على اللعنة الابدية وبالرغم عن تجلدي وصبري فان الاحلام المزعجة التعيسة تحوم دائما حول عمود سريري وفوق وسادتي المبللة بدمعي المدرار !

تركت منزلي بجأش ثابت صباح اليوم التالي بعد أن بعت كل ما بقي فيه وقطنت في غرفة حقيرة قائمة في منتهى

القرية قريبة من القبور فازدادت هواجسي وخيل لي ان الدهر يحاربني بكل ما فيه وان السماء تعاقبني على ما اقترفت

مر الليل الاول الذي جن علي في هذه الغرفة بسحابة ظلامه وانشق عامود الصباح فهرولت مسرعاً الى الخارج لاني تذكرت والدتي وشقيقتي فرأيت القرية ساكنة والناس نيام والطبيعة هادئة لا صوت فيها ولا صدى كأنها تماثلني كآبة وشقاء

وغريب أن يكون مقري بين قوم عاطلين فان سكان تلك البلدة يستنكفون من العمل وغالبهم يعيش متسولا ويتكفف الاحسان من أهل الموتى الذين يفدون بموتاهم الى القبور .

والمدهش أني لا أعلم السبب الذي حدا بي الى تلك الجهة مع انها تزيدني حزنا على حزني ولكنني صرت كالطفل يقف فوق النار فتحرقه فيصيح ويستصرخ ويبقى في مكانه تأكله النار وتفنيه

سرت بعد ذلك في طريقي الى أن وصلت لكنيسة

القبور وهناك دخلت فصليت صلاة طويلة حارة وطبت خاطري وازالت كثيراً من همومي وحببت الي الزهد والتنسك حتى اني عند خروجي لم أشعر الا وسحابة الحزن قد تلاشت ووجدت نفسي نشيطا مستريح الضمير لا شيء يكدرني كأن كل الذي أصابني من الامور العادية التي تصيب كل الناس

نعم ان مصابي أشد وقعا ولكنه أبعد خطراً من مصائب كثيرين ممن لم يثقوا بالله ويعتمدوا عليه في كل أحوالهم عماداً يوصفه لنا الانجيل الذي حملته من الامس بانه الطريق الوحيد الموصل الى الحياة الخالية من المتاعب والاكدار.

ومن الغريب اني رأيت اثناء خروجي من الدير لفيفاً من الفقراء يتحدثون بأن الظهر قد انتصف ولم ترد على رئيس الدير اشارة واحدة بوفاة أي انسان. فقلت في نفسي عجباً لهؤلاء القوم كيف انهم ينتظرون موت الاحياء ليستمطروا من جيوب ذويهم الرحمة عليهم ولكنني عدت فعرفت أن العالم كله كما قلت لي يخدع بعضه بعضاً

واذا كان الموت نهاية كل حي والصالح من الناس لا يحزن ولا يكتئب على فراق قريب أو حبيب فانما الفقراء يرون موت الناس حكيما وعادلا لانه يوافقهم ويعضدهم أما أنا فأراه يشفي غليلهم لانه يبهجهم في ساعة حزن الناس ويعلم هؤلاء أن يتغنوا أيضاً مرضاة الله في ساعة سرورهم بالاحسان على الفقراء واليتامى .

حولت نظري بعد التفكير الى وجوه أولئك الفقراء فوجدتهم يتململون لان عزرائيل لم يسلب اليوم روحا من أرواح اخوانهم في البشرية وسمعت أحدهم يحدق على الخالق سبحانه وتعالى لانه لم يسعده مع رفقائه بجثة تنزل القبر فتنزل بعدها من الجيوب غيثا من الاحسان . الا أن شيخا أحناه الكبر التفت اليهم جميعا وقال لهم أنا ذقت قبلكم علقم البؤس وشربت كأس الشقاء ولا أزال أبارك اليد العليا التي سحقتني وأمجد الارادة السامية التي نطقت بذلي وهواني فلا تجعلوا المصائب والكروب والمظالم الارضية تقتلع من أفئدتكم احترام الخالق العظيم .

أراكم شبانا ورجالا وأطفالا أقوياء تعيشون عالة على الناس وتأكلون خبزكم بكلمة تخرج من أفواهكم بينما ترون الوفا من الناس يقضون الليل والنهار في العمل ومع ذلك لا ينالون خبزهم الا بعد التعب الشديد ولا يتنعمون بساعة راحة كما أنتم تتنعمون ولو كنت في مكانكم لاشتغلت ولكن شيخوختي وضعف بصري يمنعاني عن العمل والكد. ان بينكم ولدين من أولادي يقوداني الى الناس ليتسولا باسمي ولكنني العنهما لانهما رفضا استعطافي المتواصل ونصيحتي المستمرة بل رفضا أن يشتغلا ليأكلا من عرق جبينهما ويقوما بما وجب عليهما نحوي كما قمت نحوهما في شبابي ورجوليتي. فضحك الجميع من أقواله وقالوا له دعنا يا شيخ من نصيحتك لان الله أراد لنا الحياة هكذا فأجابهم الحق أقول لكم ان الله أعطاكم القوة للعمل والعمل يغلب كل صعوبة ويجعل لصاحبه الراحة والمسرة. قالوا آمنا وعملنا أشق الاعمال لاننا نتحمل كل تعب وذل في سبيل الحياة قال لانكم تبذلون ماء وجوهكم وما أغناكم عن بذل ماء الوجه قالوا ظلم الطبيعة لنا

قال لهم الطبيعة لا تظلم أحداً . قالوا ظلم الناس قال أنتم تعلمون الناس الظلم لان الحسنات الواقعة في غير محلها قد تعد ظلما

وما أتم كلامه حتى أتى متسول يتوكأ على عصاه وقال لقد جئت لكم ببشرى حسنة قالوا وما هي قال جاءت اشارة الآن بموت أحد الاغنياء فسيروا بنا الى أبواب المقابر لنحتلها قبل أن يحتلها غيرنا فصاحوا جميعا وقالوا هيا بنا وساروا تاركين الشيخ في مكانه فاقتربت منه وحييته وأبديت له مزيد ارتياحي من آرائه ومبادئه الشريفة فقال لي اني أرى العالم كله من الكبير الى الصغير يخدع بعضه بعضا فالغني يأكل حقوق الفقير والفقير يسعى لسلب مال الغني وبينهما رجل يحتال على الاثنين وهو المحتال المستتر تحت ثوب المرياء ومظلة النفاق . والذي يحزنني كثيراً هو أن المحسن لا يجعل غايته مع المعوز مساعدته على الاستقلال ليسد حاجته بنفسه بل يجعلها لسد حاجته فقط وبذلك تمادى الفقراء في الكسل والخمول واتخذوا التسول مهنة لهم مع انها أشقى المهن وأقهرها لعواطف الانسان . وتصور يا ولدي شخصا

يجول على الابواب ملتمساً مستعطفاً يستدر الرحمة من قلوب البشر فلا ينال غالباً الا خبزاً أسوداً أو درهما صغيراً أو ثوباً رثاً تملأه الديدان وتلعب فيه الجراثيم . وكثيراً ما يرتدي المتسولون أثواب المتوفين بالامراض والادواء فتصل اليهم العدوى ويموت أغلبهم في الطرقات بعد آلام شديدة وأوجاع مهلكة ثم تنهد وقال ان في الفقر مع العمل راحة ولكنه مع التسول عذاب

مضى على هذا الحديث الوجيز ساعة من الزمن واذا بموكب حافل قد أقبل علينا فودعت الشيخ وتواريت وراء شجرة كبيرة حتى لا يراني أحد ولكن في تلك الدقيقة مر في خاطري فكر سريع كالسهم انعقدت عليه ارادتي فعزمت ان لا أحول نظري عن الموكب لاعرف المتوفي فرأيت ذلك التاجر الذي اشتغلت عنده زمنا ما يبكي بكاء مراً فد هشت واقتربت من أحد المشيعين وسألته عن مصاب هذا الباكي المسكين فقال لى أنه فقد ولده الوحيد عقب اصابته بمدية من أحد رفقائه فنزل علي قوله كالصاعقة ولكنني احتملت

الضربة بصبر وجلد وسرت في طريقي منذهلا من ذلك الاتفاق الغريب مستمطرا الرحمة والغفران على جدث ذلك الشاب الذي أغوته الدنيا فقضت عليه في ريعان الشباب

كل تلك الحوادث التي مرت علي أثرت في عند الكتابة اليك تأثيرها عند وقوعها وكانت سببا لتذكيري بآثامي الكثيرة التي ارتكبتها ثم تجلدت واستأنفت السير الى منزلي فعاد الي وخز الضمير وتبكيت النفس فركعت وصليت حتي أحياني الأمل بالخلاص ثم قمت وعاهدت نفسي على ترك البيت الى حيث تقودني القدم وبقدر الله الذي لا يحرم مخلوقا حاجته

صعود الأخوة الى الدنيا

٦

أخي

لقد وصلتني أخبارك قبل أن يصلني كتابك فلا تأخذنك الدهشة لاني تلاقيت بروحي والدتك وشقيقتك تطوفان مع حارسهما في السماء كما يطوف اللص الخائف من رقيب يترصده ويترقب حركاته لان ضميرهما كان يمثل ذنوبهما بصور وخيالات مخيفة فيوهمهما ان عيون الارواح بأسرها تنظر اليهما وتحدق فيهما

استوقفتهما عند عبورهما الى مقر الملائكة فحدثتاني بأمرك وما نزل بهما وبك فواسيتهما كثيراً الا أنهما كانتا مضطربتين مما سينالهما من العذاب حتى ان والدتك قالت لي ان الجهل ضرب على بصري غشاوة فنسيت انى أم وزوجة مربية وربة بيت ولهوت عن تربية أولادي وترتيب منزلي يحويل لي ساعة اقدم لخالقي صفحة أعمالي وهي ملطخة بالذنوب والآثام .

وبينما نحن في الحديث واذا بروح هلت من وراء السحاب فجزعت في مكاني حيث رأيت شقيقتك قد توارت وراء حارسها ووالدتك وجمت في مكانها وبالرغم عن محاولتي معرفة تلك الروح فقد حال هذا الموقف دوني غير ان حارسي أشار الي بأنها روح الشاب الذي أغوى العذراء في الأرض وقضى عليها وعلى والدتها فنظرت اليها شذراً فوجدتها قد طارت مرتعبة وهبطت الى الجحيم ثم استقرت

حرت في أمري وسألت حارسي لماذا لم تقدم تلك الروح حسابا عن أعمالها الدنيوية . فقال انها روح شيطانية يرى نفسها دائما أبداً طائرة على أجنحة الآمال والملذات البهيمية ولذا طارت الى الفضاء المملوء بالرذيلة والعار والآثام والنقائص وستبقى فيه الى الأبد

عند ذلك شعرت بنوع من الراحة وسرت مع حارسي الى مقر الأنبياء فرأيت علائم الطهارة بادية على الوجوه التي كان تسترها هالة من النور تمنع النظر اليها والدنو منها لكن داخلني الوهم انى لا بد أن أرى وجوه أعوان الرحمن الذين

أخرجو امه الى الحياة والنور فحدقت فيهم طويلا فاصابني دوار شديد فلم أبصر ما حولي ولم أشعر الا وأنا في مقرى الأصلي بين يدي حارسي الأمين

نظرت اليه كأنى أسأله عن حالي فتبسم وقال لي لا تجزع فأنت الجانى على نفسك واياك أن تعود مرة فتتوهم الحصول على ما لاتستطيع ولو اتبعت في الدنيا ما أوصاك به ربك في كتبه لما حال بينك وبين أنبيائه بحجاب ولعلك لا تظن ان هذا النور الذي غشى على عينيك فجعلك لا تبصر مستمد من قوة خارجية بل هو نور منبثق من وجوه الأنبياء حتى لا يراهم الا الأتقياء والبررة قلت ومن أين ينبثق قال من الطهارة والعواطف الكريمة قلت ومتى تجيء ساعتي قال الله أعلم . فصمت ولا أدري كم مر من الوقت على هذا الصمت لأني كما تعلم في محيط نوراني لا يكدره ظلام ولا ترون عليه حلكة

ثم قال ولا بد انك تعلم ان الانسان لا يستطيع معرفة

أسرار صديقه ولا ما سيقع له من المصائب ليتقي شرها فكيف يريد أن يعرف أسرار الله ويقف على أعماله وأحواله نعم ان بعض المتقين يتنبأون أحياناً ببعض أمور يتصادف وقوعها ولكن ذلك من شدة تقواهم التي تنير بصائرهم على ادراك ما لا يدركه الأثيم فضلا عن ان قوة ايمانهم قد تزيدهم تحقيقاً على اصابة ما يتصورون

وعلى هذا عرفت ان كل انسان لا يدرك الا ما يناسب استعداده الخاص بحسب ايمانه وطهارته . أي انه لا يرى من الامور الا على حد محدود يوافق ذاتيته المطبوع عليها . وبديهي كما ان العالم أكثر فهما وتصوراً مما يحيط به من الجاهل كذلك التقي أكثر معرفة بأسرار الحياة الدنيا من الأثيم والشرير . ولا يداخلك الظن ان أولئك الأتقياء الذين أعنيهم من فصيلة السحرة والمنجمين والمعشوذين الذين يقامرون مع الله سبحانه وتعالى ويدعون دعوات باطلة كاذبة فانما كل هؤلاء رأيتهم يتعذبون في الجحيم على ما جنوا في دنياهم باعتدائهم على حقوق الناس

وحقوق الرحمن جل جلاله .

عدت بعد ذلك الى تلاوة كتابك فسرني ما أصبحت فيه وعزمت عليه من ولوج طريق الحياة الصحيحة باتقاء الشرور والمعاصي والسير بما يرضي الله وزادني سروراً حزنك على وفاة هذا الشاب واستمطارك الرحمة على جدثه فان ذلك من آيات استحالتك الى التقى بعد الظلام . ويقيني انك لو تطالع كتاب الله وتفهم أحكامه لما استطعت أن تفرق بين الحق والواجب وما كان الحق الذي أعنيه الآن الا تركك جريمة هذا الشاب وعقابها لربك ولا كان الواجب الذي اريده الاحزنك عليه وتعزيتك لاهله

بورك فيك أيها الأخ لقد أظهرت عواطف حية الفضل فيها للكتاب الثمين الذي تحمله ويعلمك ان من لطمك على خدك الأيمن تحول له الأيسر . بل واعتقد ان تلك الحسنة التي صدرت منك ذهبت بكثير من سيئاتك في الدنيا وأملتك كثيراً بالحصول على السعادة والراحة في الأرض والسماء .

أما حديث شيخ الفقراء الذي بلغتني اياه فقد كشف لك عن أمور كثيرة وعلمك ان العمل هو أول وصية أمر الله بها عبيده لأنها تجعل الانسان نشيطاً ويدفعه النشاط الى القيام بالفروض الواجبة عليه نحو اخوانه ونحو خالقه أوليس العمل هو الذي يمنع السارق عن السرقة والقاتل عن القتل والشرير عن ارتكاب الآثام أوليس هو الذي يجعل صاحبه يحافظ على شرفه ومركزه ويكبر أمانيه في الكسب الحلال بخلاف الكسول فانه يعيش عاطلا يؤذي غيره واذا أصابه مكروه من أذيته جذف على خالقه فيخسر بذلك الحياتين .

ولا أقصد بقولي هذا المتسولين لأن أكثرهم يستحق الرحمة اما لعاهاته أو أمراضه الكثيرة أو يتمه او عدم وجود عائل يقوم بأوده . وأمثال هؤلاء يجب على كل انسان أن يمدهم بماله ما استطاع ويقبض يده عن فريقهم القوي حتى يشتغل ويأكل بعرق جبينه وحتى لا تخسر به الانسانية عضواً عاملا ان جد احيا نفسه وامته ووطنه

واني لتعروني عند ذكرى المتسولين في بلادنا هزة أتمنى معها لو كنت غنياً حتى يتاح لي أن أفتح المعامل والمصانع والمعامل والمدارس لتربية صغارهم وتشغيل رجالهم بل وأفتح المستشفيات والملاجئ لمعالجة مرضاهم وتأوية وإيواء مقعديهم الذين حالت عاهاتهم دونهم وأقعدتهم عن العمل والكد . ولكني وأنا الآن بعيد لا املك شيئاً أصلي الى الرحمن ليل ونهار عله ينير بصائر أغنيائنا فيقومون بهذا العمل الذي هو خير من حسناتهم وصدقاتهم التي تزيد المتسولين كسلا وخمولا

كما ولا يسعني الآن الا أن أطلب لك القوة لتمحض أبناء امتك النصيحة وتبث فيهم روح الحياة ليعملوا عمل الامم الحية التي ملأت الأرض وعرفت كيف تخلق من الفقراء والمتسولين رجالا يخدمونها ويعززون مقامها في نظر الانسانية . والهيئه الاجتماعيه

٧

أخي

أكتب اليك والجو مكفهر . والطبيعة ساكنة . وأحياء المدنية مغطاة بمياه الأمطار والشمس متوارية وراء الافق ولم يبق في الأرض غير الفظائع والموبقات التي يثيرها رواد الليل ورسل الفجور وهم يروحون ويغدون بين الغلمان والنساء وبين الشبان والرجال ليقودوهم الى الدعارة ويسيروهم على سنن جديدة غير السنة القويمة التي سنها الله ليجري عليها الانسان .

والغريب ان سنن تلك الفئة انتشرت بين الناس انتشاراً سريعاً ولاقت منهم اقبالا بل شغفاً أكثر مما كان ينتظر حتى لا يمكن أن تجد واحداً بين المليون يرفض السير على نواميسها الظالمة لأنها القوة العاملة في انالة الانسان مشتهياته وتلبية جموحه الطبيعي وما أكثر جموح العالم في هذا الزمان

نعم كثيراً من الناس يصبون اللعنات على تلك الفئة باعتبار انها الجراثيم المهلكة في جسم الهيئة وفاتهم ان قوام تلك الهيئة أصبح فاسداً بل أعمى لأنه موطد على الجمال والمال وكلاهما اتحدا في الأرض ليسحقا البشر هذا بضرورة بقرورة وذاك بخداعه .

نرى كل ذلك والوهم يصور للناس ان المرأة طاهرة ما دامت متزوجة والرجل شريفاً ما زال في حضن امرأته وما عداهما من النساء والرجال يعيشون في الدنس والخطيئة غير ان ذلك الوهم لا بد وأن يزول ويحل حيث أصبح الجموح عاماً والغش شريعة نافذة على الجميع . فلا المتزوج يحافظ على عبد زوجته ولا الزوجة تمنع عن ارتكاب المنكرات تحت ذقن زوجها المتطوح في تيارها على مثال ما هو متبع بين المرأة الساقطة والشاب الضال

واني وان أنكرت شريعة كهذه ولكن اتبعتها في زمني الماضي وحللتها لنفسي فهل احللها الآن لسواي . هذا سؤال يجول الآن في خاطري فلا أعلم هل لقاوم تلك الشريعة

وأنسخها بما استطعت أم أترك العالم في ضلاله وغوايته ؟
لا هذا ولا ذاك ! اذن ماذا أعمل أنتظر منك الجواب المسدد
والرأي الأعلى في خطابك الآتي

ولعلك لا تلمني اذا فاتحتك في مسألة كهذه عويصة
وانما البحث فيها لوضع حد لها من أقوم السبل لهداية البشر

هذا واني أزيدك بيانا عما حدث لي في تلك الليلة
الليلاء فقد اشتريت بعض الصحف وقصدت فندقا صغيراً
قائما على ناصية المدينة لأصرف فيه ليلتي فصادفتني تلك الفتاة
التي أغويتها في زمن غرامي وضلالي تداعب حبيباً لها
وسط ردهة الفندق فطفرت الدموع من عيني وشابهت
تلك اللآلىء التي تزين صدرها وعنقها ومعصميها ولكن
لآلئها أثمن لأنها مشتراة بمال العرض

نظرت اليها فأثر في مرآها وخفق قلبي واضطرب
وكدت أصعق في مكاني لولا اني أسرعت الى غرفتي
واوصدت الباب ورائي حتى لا تراني ولا أراها ولكن حمى
العشق رجعت الي فنظرت اليها بعين القلب وثقبت الحائط

الذي يفصلنا بقوة الفكر ودخلت اليها فرأيتها تسكب بقية عواطفها في قلب الشاب فكبرت جريمتي في عيني ودفعني وخز الضمير أن أخرج اليها وأطلب منها الصفح والغفران على ما ارتكبت

ويل لي ياأخي كانت تلك الفتاة خطيبتي ولكن حبي مزق ثوب العفاف وترك العذراء غاوية تعيش من العهر والدعارة

الحب نعمة وغضب فهو نعمة اذا حل في فؤاد يديره الرأس وهو غضب بل هلاك اذا كان القلب الذي ينزل فيه قويا جموحا يتمرد على الرأس ويقوى عليه

في وسط تلك الهواجس والافكار التي تتضارب في رأسي قرع خادم الفندق الباب وهو يقول لي ان السيدة م.. تريد مقابلتك قلت انني لا أعرف سيدة بهذا الاسم فأنا غريب عن الامة والوطن ثم ذهب ولم يعد فظننت ان حيلتي هذه دخلت عليه ولكن ما أكبر تعاستي حينما رأيت خطيبة الأمس أمامي تقول لي أنسيتني ونسيت ذلك الود

القديم والذكرى الماضية : الست أنت القائل
«ان كل شيء يزول من الدنيا الا حبك وكل شيء يفنى من مخيلتي الا صورتك»

نعم قلت ياسيدتي هذه الكلمة ولا تزال ترن في اذني حتى الساعة فتحيي في ضميري أياماً يستنزف ذكرها عبراتي .

قالت وما الذي غيرك الا انني أصبحت غاوية أعيش من الدنس وأقود الناس الى سرير الفسق ولكن أنت وحدك أول من قادني الى هذا السرير ودفعني الى تلك الظلمة التي أعيش فيها . لقد كنت طاهرة فنزعت بيدك طهارتي وكنت غنية بكل مواهب الرحمن فحرمتني منها في لحظة تمثل لي الفرق بين حياة وحياه بل هي تلك اللحظة التي القيت بعدها بنفسي في معاهد الفجور حتى أكون أخف ذنباً وأقل شراً من الفاسدات الخفيات اللواتي يتحلين بالفضيلة كذباً على أنفسهن وعلى الله وعلى الناس

قلت كفى ياسيدتي لقد عشقتك وكان عشقي شديداً

لانني أحببتك بالعقل وبالقلب وبجميع الحواس . أحببتك الى أن صرت جذوة محرقة والحب يزداد ويشتد حتى صار ناراً محرقة في صدري زادت قلبي اضطرابا وتجاوزت حدودها فخرقت أغشية الطهر فلا تزيديني بالله آلاما على آلامي فقد أصبحت أعيش على بساط الفقر ولا أملك ثروة غير الدموع التي اسكبها كلما تذكرت آثامي وشروري الماضية

قالت انني حزينة لاجلك باكية لما أصابك ولكني ما زلت أحبك بكل قلبي وان كنت العن تلك الساعة التي اغواك فيها الشيطان فنسيت الشهامة ودست على الشرف ثم نزعت من معصميها سواراً من الماس وقالت لي خذ هذا السوار فانه لك . قلت وماذا أعمل به قالت بعه وتاجر بثمنه فانني لا أود أن أراك تعيساً وأمامك جهاد كبير ينتظرك قلت انني ساجاهد حتى الموت ولكني لا أقبل منك شيئاً بل أهديك عواطفي شكراً على ما أظهرت من المحبة الطاهرة والوفاء النادر . قالت انى أرد اليك صداقك الذي اشتريت به هذا السوار قبل أن يتم قراننا

فلت لقد تم قالت أتقبلني امرأة لك بعد أن اشتهر امري بين الناس . قلت نعم أنت امرأتي وأنا زوجك ولكن اعتقدي ان هذا الزوج قد رحل عن الدنيا وترك لك هذا الصداق ميراثاً من بعده . قالت ان لك وريثاً غيري هو فلذة كبدك وثمرة أحشائك . هو ثمرة الحب الذي تعاهدنا عليه هو الطفل الذي لمسته يد البؤس عند ولادته فرضع الذل مع رضاع الحليب هو الذي هربت به جنيناً الى احدى القرى وعشت فيها حتى ولدته ثم عدت به الى معهد الفجور فريته بمال العرض وأنفقت عليه مال الحياة . ثم ... قلت ثم ماذا .. قالت غداً ستعرف فانتظرني مساء عند المنعطف الشرقي لحديقة الأزبكية والى اللقاء..

خرجت وتركتني أضرب أخماساً في أسداس وأسأل نفسي . ماذا فعل الدهر بهذا الولد فتارة أظنه صار من عداد رسل الليل وأخرى من سكان القبور وما زالت هذه الافكار تجول في مخيلتي والدموع تجري من عيني حتى انبثق الفجر وأرسلت السماء أشعتها فذهبت الى المكان الذي عينته لي

وجلست أمامه في قهوة أنتظر مرور النهار على عجل حتى الاقيها وارى ولدي ثم اقبله وأهرب به بعيداً عن العالم لأني سابت طهارة خطيتي وعفافها ولكن شريعة الناس تعلم الفساد لأنها تترك الخطيبين يجتمعان ويختليان ليتبادلا شواعر الهيام والشهوة تحرق الانسان وتفقده الرشد حتى تتغلب عليه الحاسة الحيوانية فيفعل ما يدفعه اليه جموحه ولا يبالي

ثم لبثت عرضة للتصورات والأفكار المتضاربه التي أخذت تذهب وتعود في مخيلتي حتى انتهى النهار وحلت الساعة فقمت الي المكان الذي تواعدنا عليه واذا بها قد أقبلت وأشارت الي بأن أتبعها فتبعتها ساكتاً ثم التفتت الي وقالت انني صرت ساقطة في أعين الناس ولكن سترى ولدك شريفاً . ستراه غلاما في حكمة الشيوخ وتقوى الصالحين فتسلح بكل ما فيك من عزم وقوة وشجاعة وثبات واصعد معي الى الطبقة الأولى من هذه الدار فانها مسكني الخاص ومقر وحيدك المحبوب

صعدت مسرع الخطى ودخلت في أثرها الى بهو

مزخرف تنبسط منه السعة واليسر ويملأ النفس بهجة وحياة فأهلت بي ورحبت وقالت اجلس يامولاي فهذا بيتك الذي ينتظرك منذ عشرات من السنين لتحول همه الى بشر وظلمته الى نور ثم زفرت زفرة امتد بها نفسها أكثر من غيرها وقالت ما رأيت الا طيبي القلب يخاطرون بأنفسهم في سبيل خدمة أحبائهم وهم يحسبون ان الله والعالم والطبيعة يغفرون لهم هذه المخاطرة جزاء طيبتهم ولكنهم لا يجهلون ان النواميس والشرائع عمياء لا ترى ولا تسمع لترحم وتغتفر . قلت لا تأسفي على احسانك الي فحسبك جزاء الآخرة ولا يذهب العرف بين الله والناس

قالت صدقت ولكن الناس لا يغفرون سيئتي التي أوقعني فيها حبي الشديد . قلت انني شريكك في الجرم . قالت بلى فما شريكي الا ذلك السلطان الارضي الذي يتسلط على القلوب الضعيفة فيسحقها تحت اقدامه فلو لا قلبي ما صرت ساقطة ولا تركت اهلي ولا هم تركوني اتقلب بين الاحضان . فلم اتمالك عن أن اتناول يدها واضعها فوق صدري الخافق

واقول لها يشهد الله بيننا اني اتخذتك من الآن زوجة لي. فقالت وهل تصر على قولك هـذا . قلت نعم واعد نفسي سعيداً قالت انا اسعد بك منك بي ومعاذ الله أن اتخذك حليلا لي بعـد أن تلوثت . قلت ولـكنك طاهرة القلب والضمير . قالت قف ولا تبالغ في تعظيم حياة تشتهي ساعة انقضائها فانا امرأة بائسة لا اريد منك الا أن تجعلني في الظاهر امرأة لك قطعا لالسنة الناس واختا في حقيقة الامر تجد مني الحنو الاخوي والاخلاص التام . وفيما نحن كذلك دخل غلام في العاشرة من عمره وقال اماه لقد تأخرت هذه الليلة عن موعد خروجك استبقين معي قالت نعم سابقي واذا فارقتك فلك قلب اشد مني حنانا عليك. فظفرت الدموع من عيني الغلام وقال انا لا اعرف الى الساعة قلبا ارق من قلبك ولا اشفق منه علي . قالت قلب هذا الحبيب انظر اليه الا تراه يشابهك شكلا وصورة خلق في قليل ثم قال نعم انني اشبهه أهذا هو والدي الذي حدثتني عنه وقلت لي انه تركك قبل الزفاف قالت نعم . فصرخ وقال ابي ابي لماذا تركتني ؟؟

كلمة مزقت فوادى وكادت تقضي علي لولا اني اسندت رأسي بيدي ولولا أن ولدي القى بنفسه بين ذراعي وقبلني بحرارة فعانقته عناقا شديداً حتى خيل لي انه سيستحيل الي واستحيل اليه ونصبح انسانا واحدا وهي شاخصة الينا وما عساها تحتاج الى خطاب وانفاسنا ونظراتنا وعواطفنا تترجم عما يجول في خواطرنا من السرور والانشراح .

اخذ ولدي يقلب تارة يدي بين يديه الناعمتين وتارة يلعب في سلسلتي الذهبيه واخرى يصلح ملابسي وطورا يقول لي لماذا ابتعدت عنا كل هذا الزمان وحينا ينظر الي فيرى الدموع تسيل على خدي فيمسحها بيده باسما كانه يحاول تخفيف آلامي وبين كل هذا وذاك يشخص الى والدته كانه يسألها أن ترطب خاطري بكلمة وهي قد راعها موقفي فصمتت ولم تستطع جوابا

بقينا على هذا الحال مدة لا اعرف مقدارها حتى دان سلطان الكرى على جفني الغلام فحملته واضجعته امه على سريره ثم عادت الي وقالت اننا سنسافر غداً الى

الاسكندرية لنعيش بعيدين عن هذه المدينة الدنسة التي اظلمت حياتنا وحملتنا المسبة والعار ثم ودعتني وانصرفت بعد ان هيأت لي سريرا انام عليه .

اضطجعت مضطرب الاعضاء خافق القلب ولم يمض الا القليل حتى عاودتني الافكار وصورت لي العهارة في اشنع صورها بل صورت لي تلك المرأة وهي تعيش في البغي والخطيئة فقلت في نفسي كيف اجتمع بها تحت سقف واحد وكيف اطهرها من آثامها وقد اعتادت عليها ومن يضمن لي وفاءها واخلاصها بعد أن قضت الحياة تتنقل بين اذرع الناس وتعرف كيف تحتال على عشاقها وكيف تصيب بسهم خداعها القلوب .

أن امرأة كهذه باغية خير لها الدير والعزلة عن الناس قبل أن تصبح زوجة يطمئن زوجها على عفافها وعلى شرفه ولكن ارغامها على التنسك سلب لحريتها والله في الحرية والحرية في كل شيء

غرقت في التأمل وبحثت فيما اذا كانت هناك طرق اخرى تزيل كل معصية واثم من نفسها فما وجدت الا تلك القوة التي طهرتني من قبل وصيرتني سعيداً . وماعسى أن تكون سوى قوة الرحمن المستمدة من كتابه الشريف الذي انزله هدى لعباده .

فرحت عند وجود تلك الطريقة حتى كدت اطير من شدة الفرح ثم نمت وانا اقول لتكن مشيئتك يا الهي .

انبثق الفجر فقمت وصليت واذا بها قد دخلت علي وحيتني ثم قالت لقد حل ميعاد السفر فارتدي ملابسك وهيا بنا .وما هي الا ساعة حتى كنا في القطار نتحادث في طرق معيشتنا الجديدة هي تقسم لي يمين الوفاء والاخلاص على ولوجها طريق الامانة والطهارة

وصلنا الاسكندرية ونزلنا في بيت قد اعدته لنا من قبل وصار لاهم لي الا مراقبتها وتلاوة الانجيل بين يديها في اوقات الفراغ فأرى منها ميلا شديدا لسماعه حتى كثيراً ما كانت تجيء الي وتطلب مني أن افسر لها بعض اياته ثم

علمتها فروض الصلاة ولكن من الاسف كانت تهرب من تأديتها ولمحت في فرارها سرا مطويا تشهد به نظراتها الدالة على تظاهرها بالعفة والطهارة وما اوجع أن يخالف الظاهر الباطن وشر البلايا تكافح العواطف وتضارع الوجدانات .

مر شهر وانا احاول معرفة اسباب هروبها من الصلاة فلم اقف له على علة حقيقية وخفت أن افاتحها في الامر فتغضب وما اكثر غضب المرأة الفاسقة لانها بائسة والبؤس والحلم نقيضان .

فكرت في طريقة تكبح اميالها فلم اجد لان الرشد والضلال ما اجتمعا في صدر مخلوق طبع على الشر الا وتقلب الثاني على الاول . نعم انها لو آمنت بالله لتركت الملذات ولكنها لم تؤمن ايمانا صحيحاً ولم تقبل كلمات الله وعظاته كما تصورت بادىء بدء وفي ما ابدته اخيراً دلني على استحالة نزع الميول الشريرة التي تندفع اليها مختارة كما يستحيل عليها أن تقتلع من نفسها البذور السيئة التي انبتتها يد الدعارة والفجور .

ولا يصعب عليك انقيادي لها الى الساعة لاني

كنت معتقداً أن كلمات الله رسخت في قلبها ونسخت منه المعاصي والشرور ومع ذلك فقد اضطررت أن افاتحها في الامر فاقسمت لي الف يمين على طهارتها واضطرتني أن احسن معتقدي نحوها حتى لا اتصور فيها ما يشين كرامتها. الا اني شددت في مراقبتي عليها عند دخولها وخروجها فرأيت منها تململا وبادرتني بقولها انني اهينها بصنيعي واتها اطهر امرأة في الارض فتبسمت ولم احفل بحيلتها فقالت لست اسيرتك لانني خلقت حرة افعل ما اشاء. قلت نعم حرة ولكنك اسيرة شهواتك وما كانت تلك الحرية التي تتخذينها سلاحا الا دعامة تشيدين فوقها بيتا من الفجور عند ذلك اذرفت الدمع وقالت انني غنية وثروتي تجعلني حريصة على عفافي لان العفة ثوب لا تمزقه الا الفاقة قلت كلا وانما يمزقها الفساد والحرية المبتذلة فاذا لم تشفقي علي فاشفقي على ولدك الذي اراه مع صغر سنه يتجرع الشقاء لاجلك. قالت كفى ولا تزدني حزنا وخرجت الى غرفتها باكية

دخلت عليها لارطب خاطرها فرأيتها تشرب دواء

عرفت به انها مصابة بمرض ينتاب الغاويات فاشتد بي الحزن الى درجة انسحق فيها قلبي وكدت اموت في مكاني لولا اني تجلدت وجلست على مقعد لفكر في طريقة تزيل عني تلك الكروب الشديدة التي تولتني بوجودي مع تلك المرأة وصور لي الوهم ان احسن طريقة لهنائي أن اتركها مع ولدي واعود الى كوخي الحقير فاعيش فيه بقية حياتي .

انقضى ذلك اليوم العصيب وجاء الليل فاضطجعت على سريري لانام فازدادت هواجسي وكثرت احلامي فقمت اسأل الخادم عن ولدي فقال لي انه لم يعد وعن زوجتي فقال لي انها خرجت مع شاب حضر اليها فازداد سخطي وحزني وهممت بقتل نفسي فلم استطع ثم سقطت على مقعدي كالمسوس لا يدري ما حوله وما هي الا لحظة حتى نمت وترآى لي أن ولدي جالس في وسط حانة يشرب خمرا ثم سار امامي متثاقلا في خطواته ثم وقع لاحراك به فصرخت والغم ملء فوأدي اها انه مات فاجابني نعم مت وعندها استيقظت وجلا وذهبت الى غرفته فوجدته يتألم بين يدي

والدته فسألتها عن اسباب مرضه قالت لا اعلم فحولت اليه نظري وقلت له اين كنت قال أن والدتي رافقتني الليلة الماضية مع بعض اصدقائها الى حانة فشربت فيها الى درجة الجنون تبعاً لاوامرها حتى ازيد جلسائها سروراً ولكني اغفر لهم اثامهم اما امي فلا اغفر لها ذنوبها لانها السبب في هلاكي ثم شهق ومات الى رحمة ربه فرفعت نظري الى السماء وقلت لتكن مشيئتك يا الهي

دفنت ولدي بيدي في قبره وعدت منذهلا الى منزلي من تلك الرؤيا الغريبة التي لا اعلم اسبابها فلم اجد امرأتي وقال لي المعزون انها هربت الى الدير لتعيش فيه فقلت لتعش الى الابد والله يرحمها

صرت وحيداً كما كنت فصرخت من اعماق قلبي الهي الهي لماذا تركتني ؟

صدمة الاسرة الى الدنيا

٨

اخي

اراك جزعت مما تولاك ولكن الرجل الحقيقي هو الذي يتلقى تجارب الحياة كما تتلقى الشجرة القوية العواصف فلا تجزع ولا تحزن وابحث عن زوجتك لعلك تجدها فتحرك عواطفها لعمل الخير وتصبح لك اما واختا وتلد لك اولاداً يملأون الارض عملا صالحا .

عاملها بكل حسنة ليستقيم قلبها كما استنار عقلها فلا تحرف الى الاهواء والمفاسد . حبها كما تحب نفسك فتضحي حياتها لاجلك سر اليها وجاملها لان المجاملة خير من المشاكسة ولا تظن أن الديانة بمسوغة عن اعمالها لانها اذا تجاوزت الحد في اعمالها فلا يمكننا أن نعزو الى الدين هذا العمل المنكر

تقول انها لو آمنت لتركت الملذات أما انا فاقول لك يجب أن تترك الملذات لتصير مؤمنة بغير ابطاء . ولو اتخذتها زوجة لما انهمكت في الشهوات ولا اتخذت غيرك محبا أو

خليلا ولا صبحت كما تحب مؤمنة وقادرة على السير بما يرضي الله

واذا ما سألتني ابدأ رأيي في تلك الشريعة العمياء التي يتبعها البشر ويسير عليها أكثر الناس وهم يصرحون بأن الشهوة لا تعد جرما والرذيلة قابلة للغفران وان دعي الاستقامة ليس الا خبيثا يظهر في غير مظهره وابله لا يدرك عمله فاقول لك ان تلك الأوهام التي يريدون تأييدها يخدعون بها انفسهم لان مقترف هاتيك الامور لا ينجو من الألم والضجر ولهذا يجب عليك أن تقاومها ما استطعت طالما كانت الطريق الرحب المؤدي الى الحانة والقهوة وملعب القمار وأمكنة الدعارة والمستشفى والبيمارستان والفقر أو القبر . وقد تجد تلك أعوانا كثيرين يمدونك بآرائهم الثاقبة ويعضدونك بمواهبهم السامية ان لم يكن من الذين أتعستهم تلك الشريعة الفاسدة وذهبت بأموالهم وكرامتهم فمن الذين حنكتهم التجارب كما حنكتك وصاروا أشد ايلاما على سقوط البشرية من الاتقياء والزاهدين .

كثير من الحكماء يبذرون كلمات الله وأنبيائه ورسله بين الناس ويعلقون عليها الشروح لتزداد فهماً ولا ينتظرون منها أن تحول في القريب عقول البشر عن تيارها الفاسد الى الصراط المستقيم ولكن اذا كثر الزراع كثر الحصاد ومتى وجد الكلام الحسن بكثرة فهناك أيضاً توجد الآداب الحسنة التي ترفع بأصحابها عن الميول والأهواء النفسانية فاتخذ لك من أعوان الخير ما تدرأ به تلك الويلات والخسائس التي تنتاب الانسانية مع العلم بانك لا تنتظر أن تحصد اليوم مازرعت بالأمس بل أنتظر أن تحصد غدا حيث تنمو بذورك السليمة وتكون قوية يسهل على غيرك استغلالها باهون سبيل .

أما بحثك في شعور الانسان بأشياء قبل أن تحدث أو رؤيته أشياء في نومه وتظهر بأجلى بيان في صحوه ويقظته فهذه مسألة بالرغم عن بحثي المستمر فيها مع حارسي واستعطافي الشديد له بأن يقصها على أحد الأنبياء ليوقفني على حقيقتها فلم يأب لي طلباً وغاية ما يمكنني أن اسرده عليك الآن هو

ان الأصوات على مختلف علاماتها ونغماتها المتعددة تنتشر بواسطة هزات الهواء أو بواسطة وسيط آخر ثقيل ومن الهزات ما يحدث في الأثير نعني التي تشاهدها عيوننا بصورة النور فيتراوح عددها في الوقت نفسه بين ٤٥٠ الى ٦٥٠ ملياراً وأما الهزات التي تحدثها أشعة روتجن فهي أسرع مما ذكر ومن حيث ان هذه الاشعة تقطع مسافات مختلفة القياسات ألا يمكن التسليم بهزات أخرى غيرها قادرة على أن تقطع كثرة وافرة من الصعوبات وان تبعث الى ما هو أبعد رسائل دماغية تنقل أفكار أحد الأرواح وتصوراته الى روح أخر دون توسط الأعضاء الجسدية . ذلك ما استطعت شرحه لك وهو شرح وأن كان ضعيفا فاليقين فيه من أمر ربك

وأنه لامر مذهل اذا حدثتك بأن روح ولدك ما وصلت الى المقر الاعلى حتى أحسسنا جميعا بميل طبيعي نحوها خصوصاً روح والدتك التي رفرفت حولها وانحدرت معها الى مثوى الابرار ثم عادت منفردة وتركت تلك الروح الصغيرة

تهيم في جنات النعيم. وقد لا أستطيع وصف ما يدور بخلدنا الآن لانا منتظرون غداً ما يحل بنا بعد ان زادت كفة سيئاتنا عن حسناتنا وبعد أن عرفت من حارسي اني سأهبط الى الهوة التي أعدت لأمثالي من الخطاة . ولا يداخلك الظن انك مهما أحسنت ستهوى الى الجحيم الذي سنهوى اليه لاننا لم نتب فى الدنيا عن معاصينا كما تبت بل ولم نقم بحسنة واحدة من تلك الحسنات العظيمة التي قمت بها وصيرتك أهلا لسكنى النعيم

وها أنا ذاهب الى مقري أحاول أن أرتاح قليلاً فلتكن يد الله معك ويد الله فوق الجميع.

من الدنيا الى الآخرة

٩

أخي

شعرت اليوم بحمى شديدة تحرق جسدي ولولا ان قلمي يندفع للكتابة اليك لاثرت الراحة في مضجعي حتى يدنو أجلي فأتلاقى بك في العالم الباقي غير آسف على دنيا اسعدتها فأتعستني وأهديتها مالي وولدي وأهلي فأهدتني الغم والضيق والبلوى .

ضغطت على شعوري وضميري كثيراً لئلا أحزن ويجعلني الحزن اما كارهاً للاعمال الحسنة واما سريع الغضب مضطرب الذهن ولكني لم أستطع أن أمنح السرور لقلبي المنسحق ونفسي المنكسرة . صليت طويلا وأنا مستلق على سريري فتعزيت قليلا وانتفى عني الحزن الذي ذهب بي كل مذهب ثم ثقل النعاس على جفني فنمت لحظة وبعدها استيقظت على صوت طارق ينعي الي امرأتي المسكينة التي اتحرت حزناً على ولدها لانها كانت سبب موته قبل أن

يشب ويترعرع فحزنت عليها وولولت وبكيتها بكاء مرا لانها قطعت مسافة الحياة بين الشقاء والبؤس ولاني انا المجرم الحقيقي وجدير بي أن اقرع صدري بيدي واعاقب نفسي بنفسي .

واذا رأيتني لا انسب لتلك المرأة جرما ولا خطيئة ولا شرا فذلك لاني العن والديها لانهما لم يسلحاها بالفضيلة للدفاع عن نفسها في حياة محفوفة بالمخاطر بين ابناء الهيئة الاجتماعية والعن كذلك نفسي لانني لم احترم نفسها لتتحلى بالانفة والحياء.

على اني حين انزلتها الى القبر الموحش وبللت ثراها بدموعي الغزيرة اندفعت هائما على وجهي متمثلا امام عيني صورتها في درجة من الجمال لم ارها فيها ابدا بحيث كنت متلذذا بها كشيء يشاهده الانسان دواما ولا يشعر بلذته الا عند فقده اياه وهكذا بقيت ساعات اراها بعين الفكر ترفرف حولي وتحنو علي ولن يعلم ابن ادم حنان المرأة وعظم محبتها حتى يتنكر له الدهر وتعبس له الدنيا

عدت الى منزلي وقد خلا من كل حبيب فاستسلمت

للافكار المقلقة وتخيلت أن زوجتي تشكو الى الاله ما لاقته من جوري وظلمي فهرولت بين الغرف فرارا مما اتخيل فسمعت صوتاً يتردد في أذني قائلا : ايها الرجل الدنس اقترفت منكرا هائلا فلم تسقطك البشرية اما انا فوصمتني واسقطتني الى هوة الذل والهوان لانني اطعتك . أن حواء اسقطت ادم من الفردوس فحاسبتها الانسانية اما ادم الجديد فيسقط حواء في كل يوم ولكنه لايحاسب ولايحاكم .

وكان ذلك الصوت يزداد قوة في اذني وسط الظلام الدامس فيزيدني رعبا ويستفزني المرة بعد المرة للانتحار وما هممت في النهاية للقضاء على حياتي حتى سمعت صوتا يقول لي قف فوقفت مذعورا وقلت ما هذا الجنون الذي اصابني وسط السكون المخيم على المنزل وما هذا الشقاء الذي تولاني ويدفعني الى الانتحار وما بالي نقضت شريعة الله واردت الاعتداء على حقوقه تعالى وما هذا الجبن الذي ملأ نفسي وانا شجاع في زمن الحزن وقوي على المكاره حتى في ساعة اليأس .

اراهم يقولون الانتحار راحة للبائسين اما انا فاقول لهم انه شريعة المعتوهين الذين لا دين لهم ولا ايمان قوي يشجعهم على احتمال المصائب والارزاء في معترك الحياة . وما زلت اقاوم شقائي وهمومي وما زالت صور امي وشقيقتي وزوجتي وولدي تتراءى لي بخيالات مخيفة واشكال مرعبة تجزع لها اشد النفوس شجاعة وبأسا حتى غلب علي النعاس فانطرحت على سريري مطلقا لدمعي العنان فجرى غزيرا ثم رأيت شبحا اسود يتوارى خلف وسادتي فظنته لصا وهممت للقبض عليه فلم اجد شيئا . عدت الى مضجعي فرأيت الشبح يقترب مني رويدا رويدا فصرخت صرخة ارتجت لها اركان الغرفة وقلت الهي انقذني من عذاب الدنيا وعذاب الضمير واذا بصوت محزن يرن في اذني قائلا لقد هربت من العالم لاجلك واتحرت حتى لا اشاهد البشر وهم يرمونني واياك بالشبهات والظنون فقم فان النوم حرام على عيونك اطعت وقمت وانا لا ادري ما وراء تلك التخيلات المفزعة وخرجت الى الشرفة افكر في وسيلة للنجاة والفرار

من وخز ضميري وهيهات أن توجد راحة لشقي مثلي ضحى شبابه وامواله واهله واحبابه على مذبح امياله وشهواته كما يضحيها كل البشر على هذه الارض ولاتمطرهم السماء نارا كما امطرت من قبل عامورة وصدوم

وكان الفجر قد انبثق صاعدا من وراء الافق ينشر على العالمين بساطا من النور وعلا صوت جرس الدير القائم على جبين المدينة يسلم على الصباح ويطلب المتعبدين الى صلاة الفجر فركعت وصليت ووعدت نفسي بالانفراد عن العالم.

دخلت الى غرفة زوجتي وولدي وبحثت في زواياها وطاولاتها على شيء مما أبقياه فوجدت حليا كثيراً ونقودا وافرة وأوراقا شتى أكثرها من العشاق والمحبين وبينها كتاب كانت كتبته الي عتب فراقنا الاول ولكنها أنفت أن ترسله وحفظته ليعيد الى ذاكرتي ما طالما حاولت نسيانه واليك نصه:

زوجي العزيز

أودعك لاني سائرة الى وادي الهموم الى حيث تفقد

الطهارة وتسود المرذيلة ويسام الشرف بالمال بل الى حيث العن الساعة التي جمعتني بك لانها القتني على فراش الدعارة والهوان . والعن الكاهن الذي باركنا لانه رفع يده فوق رأس يملاها الغش والمكر والظلم والخداع .

كهنة كثيرون يفعلون فعل هذا الكاهن وفي اعتقادهم انهم يصنعون ما فيه رضا الله ولكنهم يعقدون الهلاك على رؤوس الفتيات ويسجلون حكما عليهن باعدام نفوسهن .

يتخذون قول الشاعر العظيم — أن ما يجمعه الله لا تحله يد انسان — ترسا لهم مع انهم يعلمون جيداً أن ما كان يفهم بذلك الجمع من اتحاد رجل وامرأة لصلاح الهيئة اصبح يفهم منه اليوم عقدا للذة والاتجار .

نعم اصبح كذلك والا لما اندفعت الى هجرى بعد أن اشبعت لميالك من جسمي . بل لما دفعتني انا تلك البائسة المعذبة ان اهبط الى وادي المذلة والهموم مفوضة امري الى ربي وهو وحده المنتقم العادل .

فاحذر غضب الله . احذر أن يصيب عائلتك بما اصبت

به عائلتي والجزاء من نفس الجزاء. احذر لان الظالم لابد وان يظلم وستبدي لك الايام حقيقة الواقع ويبرهن لك المستقبل عن صدق قولي والسلام.

زوجتك الحزينة

ولا استطيع أن اعبر لك كم اثرت على تلك الكلمات وحسبك انها اعادت الى ذهني تلك الحوادث الهائلة التي مررت فوق جسرها الجهنمي وعلمتني فوق ما اعلم أن هناك الها حيا يجازي المحسن على حسنته والمسيء على سيئته

احنيت رأسي الى صدري وفكرت طويلا في تلك الحياة التي انفقتها بين هياكل الهوى والهوان وضحيت على مذابحها ارواحا شتى لم تجن ذنباً ولم تقترف اثما فهالتني خطاياي وكبرت ذنوبي في عيني فبكيت حتى بللت ملابسي وغسلتها من الادران والاوزار ولكني احسست أن نفسي لم تزل في ثوبها العتيق ملوثة بالخطايا والاثام ولا تطهرها الا نفخة من روح ربك.

فيا ايتها النفس الارضية يا نفس ذلك الشقي المتعب.

الكثير الخطايا . العديد الذنوب . الا يمكن أن تطهري من اثامك وجرائمك . الا يمكن أن تنزعي ذلك الغشاء الحيواني الذي غطى على مبادئك الحسنة وصفاتك الجميلة . الا يمكن أن تنتقي الادران من خلاياك وتصبحين اهلا لتلك الروح التي تعيش بين جنبيك متعذبة متألمة . شاكية متوجعة . تكلمي ايتها النفس فان كلمة واحدة منك لاحسن لدي من كنوز الحياة وامال الدنيا .

عند تلك المناجاة سمعت صوتا قويا يتردد في صدري قائلا : ايها الخاطئ انا خلقت امارة بالسوء انقاد الى المعاصي وانحرف الى الاهواء فاكبح جماحي وانزع بي الى الطهارة والفضيلة اذا شئت بل استعد لمناضلتي اذا كنت شجاعا لان بيني وبينك قتالا هائلا سيطول اجله وما اكبر قتال الروح والجسد .

طار صوابي من هذا الصوت المرعب وخفت أن يصيبني مس من الجنون فرفعت عيني الى السماء لاستجير بالله وملائكته من هول ما انا فيه فرأيت الجو مكهفرا

كانه يعبس في وجهي والريح يعصف بشدة كانه يحمل الي غضب الرحمن فوجمت في مكاني وصور لي الوهم اني سأتحول الى حجر صم وجبذا لو تحولت حتى لا احس ولا اشعر وحتى لا يتحول جسمي بعد موتي الى رماد يذروه الرياح فيملأ الدنيا ذنوبا واثاما .

نعم نعم ذنوبي لا تحصى واثامي لا تعد وذرة واحدة من جسدي تكفي لان تصير الوفا من البشر يتمرغون في حمأة المفاسد والشرور فكيف بكل ذرات جسمي وقد عبث فيها سوس المعاصي والذنوب .

تكاثرت علي الآلام من كل جهة فهممت اقلب تلك الاوراق التي بعثرتها لعلي اجد فيها كلمة تعزية ورجاء فما وجدت الا كتابا قطع بقية املي ودلني على أن زوجتي هي وحدها التي حرضت الشاب على اغواء شقيقتي واليك نصه :

عزيزتي

طوعا لامرك انطرحت على اقدام خطيبتي شاكيا متوجعاً . مسترحما مستعطفا . متوسلا متوددا . معاهدا

موافيا حتى صح العهد وتحكم الود . وانقضى الليل وطلع الفجر . فصحوت من السكر . وعرفت كيف ينقضي عهد الغرام . وكيف يضمحل ثوران القلب .

هجرتها بعد أن حملتها تبعة الذنب كما حملك اياه ذلك الذئب . فلتكن ملعونة مني كما صار ملعونا منك الى الابد .

اطمئني وافرحي فقد انتقمت لشرفك وكان انتقامي عادلاً .

محبك المخلص

استفحلت الامر واستنكرته على زوجتي لانها انتقمت مني ومن عائلتي دون ان تفوض أمرها الى خالقها كما عزمت ثم القيت الكتاب من يدي فسقط على رجلي فصحت صيحة ذعر كمن تنسل عليه افعى وخرجت من الغرفة هائما على وجهي لا أدري أين تهديني قدمي وخيل لي ان العالم كله ينظر الي ويشير علي قائلا : هذا هو المجرم . هذا هو الاثيم . فاغمضت عيني وعدت الى بيتي فاحسست كأنه قد تحول الى جحيم وشعرت بان نارا تتصاعد من أرضه وسهاما تخرج من سقفه وجدرانه فقلت رحماك

يالهي رحماك فسأهرب من هذه الدنيا بعد أن اترك كل ما أبقته زوجتي وولدي من مال وعقار حبساً على الفقراء والمساكين

وكما خرج البار من صدوم قبل ان تمطر عليها السماء سحائب الكبريت وتنفض الغبار عن قدميه عند اجتيازه أبوابها هكذا أنا تركت البيت ولم أدع عليه من آثار فساده سوى ثوبي .

هجرته الى الدير الى حيث أعبد الله الى حيث تقول لي النفس التي أشقتني وأشقيتها ان في العزلة عزاء للقلوب المتألمة وفي العبادة شفاء للنفوس العاصية والله نصير العصاة وعضد المذنبين اذا رجعوا الى الصواب وثابوا الى الهدى

دخلت الدير فرأيت الحياة غير الحياة والناس غير الناس بل رأيت التقشف والزهد والعبادة والراحة والمساواة والرفق وكل فضائل النفس تتمثل باوسع معانيها فحمدت الله وسجدت مع الساجدين لاسبحه تعالى على انعامه وفضله ولكن ضميري كان يقول لي : اخرج من زمرة الاطهار ابتعد عن الاصحاء لئلا تلوثهم بذنوبك وآثامك فقلت يالله

ما أقسى هذه الذنوب وأظلم تلك الآثام ثم انسللت من بين الرهبان الى حديقة الدير فلازمني وخز الضمير واخذ يقول لي ان البستاني الذي يذود الطيور عن الزرع لخير منك اذ هو يقي الخير الذي تأكله وأنت خامل .فقلت له ان وخزاتك الشديدة القتني في أظلم هاوية فلا قوة لي على العمل ولا على الراحة . قال كف عن التفكر والهجس تمتع بخيرات الحياة قلت باطلة هي الحياة التي تريد ان أتمتع بها قال انما للباطل فقط . وعندها خرج الرهبان والتفوا حولي يقصون علي أحسن القصص وأنا شاخص اليهم لا أدري ما يقولون حتى انفرط عقدهم وعاد الي وخز الضمير

من الاخضرة الى الدنيا

١٠

أخي

ان روحي جزوعة عليك . نزوعة اليك تود لا تهبط الى الارض قبل أن تهوى الى الجحيم لتعانقك وتقبلك على ابلالك من الخطايا التي انحلت عن نفسك بتوبتك توبة حقيقية مصدرها الاخلاص والشعور الصحيح .

وما كان ابلالك الا من اقتناعك بخطاياك وحزنك عليها واعترافك بها وارتدادك عنها ارتدادا كليا ارجعك الى خالقك والى شريعته المطهرة التي تدفعك وحدها الى العمل الصالح والى ضبط النفس عن الميول الذاتية والاهواء الدنيوية . على انه جدير بك بعد ذلك أن تخرج من عزلتك وتعيش بين الناس حاضا على محبة الخير وكراهة الشر ونبذ المعاصي ليكون جزاؤك اوفى وعملك خيراً وابقى

نعم هنالك الوف من البشر يتخذون العزلة في الاديرة وفي الصوامع سلما للوصول الى نعيم الدار الاخرى ولكنهم

يخطئون في ظنونهم واوهامهم لان الله لا يحب الكسالى ولا يتقبل دعواتهم كما يتقبلها من الذين يعيشون بين الناس ويقاومون اميالهم النفسانية ويكبحون في الوقت ذاته اهواء غيرهم حتى لتجدن اكثر الذين يحسنون الى انفسهم والى الله والى العالم هم الذين يخففون الآم الانسانية المعذبة لانهم يتمتعون بشيء من لذات السماء وهم بعد على الارض وبقدر ما يكون تمتعهم اكثر يكون استعدادهم الى السماء أكثر.

فاخرج من تلك العزلة وعد الى العالم لتقاوم فساد البشر ولتجعل قلبك مستودعا لكل عاطفة نبيلة ومبعثا لكل نور يضيء حياة الاخرين بل لتقوى روحك على جسدك وتظل بالرغم عن كل المخاوف والمصائب الدنيوية تسبح الله وتشكره على انعامه.

اخرج من تلك العزلة فانما بين الناس يجب أن تظهر تقواك ويظهر ابتلاك من الخطايا واستعدادك للموت بدون خوف ولا وجل وطوبى للاموات الذين يموتون في الرب فان لهم جنة النعيم مأوى.

من الدنيا الى الاخرة

١١

أخي

أن عذاب الضمير يرافقني في كل مكان حتى في ساعة الصلاة وحتى على فراش النوم . وارى الموت يقترب مني في كل لحظة ثم يحاول الرجوع ثم يرتد ثم يعود ثانية وحبذا لو وافاني مرة فلا يرجع الا وحياتي في يده .

حبذا حبذا فقد سئمت تلك الحياة وعيل صبري فلا الوحدة تعزيني ولا مجتمعات الناس تأخذ شيئاً من همومي ولا بارق امل في فوأدي يعيد الي الراحة . ولا واحد بين الناس يتأسف علي ويطلب لي من الله رحمة وعفوا .

ارى الرهبان تتدفق من وجوههم امواه البشر وينبثق من قلوبهم نور الهدؤ والراحة ثم انظر الى نفسي فاجدها تتقطع حسرة وتذوب اسى ويمتص الحزن بقية ما فيها من حياة وشعور . وها انا اقترب من الموت وعما قليل سيجمعني بك وبرفاتك وينهال علي التراب فارتاح من عمل الحياة

واخلص من عيشة لم ار فيها نعيماً .

أن اصابعي ترتجف والحمى تنتابني بشدة وضيق صدري ينذرني بليلة عذاب وسهاد . وها قد طفقت افكاري تضعضع . فرحمتك يا الهي هل اغتفرت ذنوبي اكتفاء بما قاسيت من الآلام والاكدار .

رحمتك رحمتك فان خيال الموت يتراأى امام عيني وعويل العدم يرن في اذني . رحمتك رحمتك فانني ساموت ولا توبة بعد الموت . ولا غفران في القبر . ولا تجديد في الهاوية . ولكن لتكن مشيئتك يا الهي .

الظلام يتكاثف امامي ولم اعد ارى ما اكتب فالوداع الوداع يا اخي ؟

من الاغرة الى الدنيا

١٢

اخي

أكتب اليك وأنا على هاوية الجحيم. الظلام يغشاني. والشياطين تكتنفني وترعاني. والآلام تبرح باهلي وخلاني. بل أكتب اليك وعويل الارواح قد صم آذاني واذاني. وعذاب الخطاة قد اذبل أفناني وأفناني. وصير هيكلي الفاني يعاني من المتاعب والمخاوف ما يعاني.

يئست من موقفي فانتقلت من هوة الى هوة ولكني كنت كمن في شعلة نار متقدة يتقلب من جمرها الى سعيرها. توغلت في الجحيم أدوس على الاشواك الحادة فسمعت أصواتا مرعبة هائجة تزداد وتتعالى فجزعت واجفلت. حاولت الفرار واذا بحارسي قد لحقني وظل الظلام قد غشيني فعدت أدراجي. انسللت من بين أعتاب الجحيم واذا بحشرجة الشياطين ودمدمة الخطاة قد اختلطا وتمازجتا وتدانى طرفاهما فالتقيا على تلك الاعتاب من غير ان يفسحا

لي مكانا بينهما لامر . وقفت فرأيت واديا عميقاً تتطاير فيه الاشباح من ظلمة الى ظلمة فحرت في امري وهممت أستغيث بالخالق العظيم فجمد لساني في فمي وما عدت أعي ما حولي ولا عجب فربك حكم عدل لا يقبل توبة الخاطئ بعد موته ولا يمكن للخاطئ ان يضرع اليه تعالى لانه لا يراه لكثرة ذنوبه وآثامه

ولا قبل لي بان أصف لك أكثر مما وصفت ما سألاقيه في مصرع الاوزار فلتكن كلمتي الاخيرة تهنئتك على خلاصك من أسر الخطية وعبودية الشيطان . ويوما بالطهارة مع الخصاصة والذهب لخير من الف عام بين الرذيلة والذهب ليس لان الطهارة تكلف قليلا وتساوي كثيرا والرذيلة تكلف كثيراً وتهلك النفس والنفيس بل لان الاولى من روح الرحمن والثانية من صنع الشيطان .

ولئن كنت أهنيك على سعادتك واغبطك على توبتك فلاني أود ان تتعلم كيف يجب أن تجعل الناس سعداء لان السعادة الحقيقية هي السعي دواما لاسعاد الآخرين تارة

بتحسين حالهم وبعث اشعة الايمان الى قلوبهم وتعزية متعبيهم وتارة بمساعدة معوزيهم وطورا بالدعاء للمنهمكين منهم في الملذات والعاكفين على القبلات وللعذارى المستورات والنساء الغاويات والعقلاء الذين يتفكرون في راحة الخلق والكافرين الذين يطعنون في الشريعة المقدسة والى كل من يمر من الاحياء على الارض ليصير قلبك نقيا طاهراً كأنه صحن الهيكل الذي يغسل في كل مساء.

فقم من الآن واسجد على الارض حيث وضع ابوك اباه وحيث وضعت أمك أمها وحيث يرقد كل من عاش عليها رقدة عميقة لتكون دعواتك مقبولة وثوابك أجزل قم لتنجى نفسك من شر الخطايا واخطار الجحيم. قم ولتكن قوة الفضيلة عونك أينما سرت ورحمة الله عضدك حيثما حللت.

***

وصل الي هذا الكتاب وقد خرجت من الدير الى ساحة العمل مصفرا من العزلة التي ظلمت فيها روحي

وسجنت بين جدرانها نفسي فشعرت بان السلام قد دخل قلبي . والايمان قد ملأ عواطفي . والطهارة قد ظللت نفسي . فسجدت على الارض ورفعت يدي الى السماء وناجيت الاله قائلا :

الان ياربي قد شعرت براحة استطعت بها أن ارى بعيني الاثام قد انحلت عن نفسي بل الآن قد رقت عواطفي ورجع لي عقلي امام جلالك جئت اليك يا الله يامن يجب علينا الايمان بك واحضرت لك قطع قلبي المنكسر وهو مملوء بحمدك .

جئت اليك يا الله يا خالق الخلق ومبدع الكون معترفا بانك رؤوف حكيم وبانك اله حي تواب رحيم . لك اوجه وهو الضمير . ومحور وهو العدالة . ونقطة اعتدال وهي المساواة . وفخر واسع وهو الحرية . وصدر رحب وهو العفو والغفران . وشعاع ينير وهو الفضيلة . وكتاب سامي المبدأ وهو الوصايا العشر . فانت موجود بلا نهاية . بلا بداية . بلا كسوف . بلا ملل . بلا فراغ من العمل . بلا نوم . بلا

احلام. بلا هجس فلتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في انا الحقير الهائم التائه بين وديان هذا العالم الزاهي الزاهر بمسراتك وافراحك وشموسك واقمارك . ثم قمت وسرت فشعرت كاتني نسمة حية طائرة داعية مناجية حتى وصلت الى منزلي فسقطت دمعة حارة من عيني كانت الوداع الاخير لخطاياي التي انحلت . واوزاري التي محيت . واثامي التي فنيت . والمجد لله في الدنيا وفي الاخره

تنبيه واستلفات

وقعت اغلاط مطبعية فعلى القارىء تصحيحها قبل المطالعة لعدم اخلال المعنى واليك بيانها

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٧	١٠	تقتل	تقتتل
٤٤	٧	تضربني	تضربانني
٥٢	٦	انه اصبح من	انه من
٥٥	٨	لفيف	لفيفا
٥٨	٣	قل	قبل
٦٤	٦	نيام	نياما
٧٧	٤	وتأوية	وايواء
٧٩	٤	بضروره	بغروره
٩١	١١	تركت	لتركت

وهناك بعض اغلاط اخرى لا تخفى على اللبيب

DATE DUE

A.U.B
تادرس ،رمزى
الدنيا والآخرة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038000